مشاكلة الناس لزمانهم
ومايغلب عليهم فى كل عصر

تأليف

أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر

(اليعقوبى)

تحقيق :

محمد كمال الدين عز الدين

الناشر

عالم الكتب

٣٨ عبد الخالق ثروت - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله مداول الأيام بين الناس ، مالك الكون بقدرته ، ومدبره بحكمته ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، وكل شيء عنده بمقدار .

أما بعد ، فهذا كتاب « مشاكلة الناس لزمانهم ، وما يغلب عليهم فى كل عصر » يخرج لأول مرة من خبايا المخطوطات ، وكم كان لعنوانه قبل الحصول عليه من تشويق إليه ، أقدم بين يديه هذا الموجز للتعريف بصاحبه : العالم المؤرخ الجغرافى أحمد بن أبى يعقوب ، مجملا ما قال العلماء فيه ، مستمداً من الله السداد فيما قصدت ، وهو جل علاه ولى الفضل ومانح التوفيق .

المؤلف :

ترجم له ياقوت فى معجم الأدباء (١) بأقل من ثمانية أسطر قال :

« أحمد بن أبى يعقوب إسحق بن جعفر بن وهب بن واضح الأخبارى العباسى . ذكره أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصرى الكندى المؤرخ فى تاريخ له ، ابتدأه بسنة ثمانين ومائتين قال : إن أحمد بن اسحق ابن واضح مولى بنى هاشم ، توفى سنة أربع وثمانين ومائتين . وله تصانيف كثيرة ، منها : كتاب التاريخ كبير — كتاب أسماء البلدان مجلد — وكتاب آخر فى أخبار الأمم السالفة صغير — كتاب مشاكلة الناس لزمانهم . » .

---

(١) معجم الأدباء : ٥ : ١٥٣ — ط دار المأمون .

كما ترجم له الزركلي في الأعلام (١) مخالفاً في تنسيق الأسماء فقال :

« أحمد بن إسحاق أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي . مؤرخ جغرافي كثير الأسفار ، من أهل بغداد ، كان جده من موالي المنصور العباسي . رحل إلى المغرب ، وأقام في أرمينية ، ودخل الهند ، وزار الأقطار العربية ، وصنف كتباً جيدة منها : (تاريخ اليعقوبي) انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العباسي . وكتاب (البلدان) و(أخبار الأمم السالفة) صغير ، و(مشاكلة الناس لزمانهم) .

واختلف المؤرخون في سنة وفاته ، فقال ياقوت : سنة (٢٨٤) هـ ونقل غيره (٢٨٢) وقيل : (٢٧٨) أو بعدها ، ورجحت أخيراً رواية ناشر الطبعة الثانية من التاريخ ، إذ وجد في كتاب (البلدان) — الصفحة (١٣١) طبعة النجف أبياتاً لليعقوبي نظمها ليلة عيد الفطر سنة (٢٩٢ هـ) . ومراجع ترجمة الزركلي هي :

معجم الأدباء — ٥ : ١٥٣ ط دار المأمون ، ومقدمة تاريخ اليعقوبي — طبعة النجف ، وفتح العرب للمغرب ص ٣٠٤ ، معجم المطبوعات ١٩٤٨ ، والعرب والروم لفازيليف ص ٢٣٥ .

أما بروكلمان (٢) ، فتفيدنا ترجمته للمؤلف إلى جوانب من حياته تعنى الباحث ، منها: نشأته على التشيع ، التي لها أثرها في اتجاهاته « وكان واضح يتشيع سراً على الرغم من صلاته الوثيقة بالعباسيين ومناصبه الرفيعة ... وقد توارثت أسرته التشيع ، فاعترف أحمد بولائه للموسوية ، وهم فرقة من الإمامية المعتدلين . » .

ومنها: ذكر بعض أعماله وكتبه : « قضى أحمد شبابه في أرمينية ، وفي خدمة الدولة الطاهرية بخراسان ، وقد مجد أعمالها في كتاب خاص » .

---

(١) الأعلام : ١ : ٩٠ — الطبعة الثالثة .

(٢) تاريخ الأدب العربي : ٤ : ٢٣٦ — المعارف ١٩٧٥ .

كما يرشد إلى التوقيت الذى ظهر فيه بعض كتب المؤلف :

« ويبدو أنه ألف أيضاً فى ذلك الوقت كتابه عن تاريخ العالم ، الذى وصل فيه إلى سنة ٢٥٩ /٨٧٢ — وبعد سقوط الدولة الطاهرية ذهب إلى مصر ، وفيها كتب كتابه فى الجغرافيا سنة ٢٧٨ /٨٩١ — ثم توفى سنة ٢٨٤ /٨٩٧ » .

وبروكلمان لايتردد — هكذا — فى تحديد ربع وفاة المؤلف ، ولا فى حصر نهاية كتابه عن تاريخ العالم بسنة ٢٥٩ هـ من خلافة المعتمد على الله ، على حين امتدت حياته إلى سنة ٢٨٤هـ . وليس هذا الحصر بعيداً . إذا نظرنا إلى اشتغال ابن يعقوب فى هذه المدة بتأليف كتاب (البلدان) غير أن ما حملنا على هذه الالتفاتة ، هو تذييل كاتب تاريخه بقوله المشكك بعد تمام النسخ .

« تم الموجود من تاريخ ابن واضح الكاتب العباسى رحمه الله تعالى وعفا عنه ، والحمد لله رب العالمين . . . » (١) .

وكان تمام نسخه هذا سنة ١٠٩٦ هـ .

وقد نظرت فى كتاب (البلدان) طبعة (ابريل ١٨٩١) والمطبوع مع المجلد السابع من (الأعلاق النفيسة) لابن رستة ، فوجدت إحدى الملحقات المنقولة عن خطط المقريزى ، وهى تتضمن بيتاً واحداً من (الخفيف) فى خبر سيق عن اليعقوبى ، وبمطابقته للمصدر ، وجدته لا يختلف عما أثبته الناشر إلا فى الإسم العلم للمؤلف ، فقد سجله المقريزى — إن لم يكن خطأ الناسخين ، « محمد بن أبى يعقوب » فصححه الناشر فى الملحقة ، وقد حاولت أن أجد فى كتب التراجم لهذا القرن اسم (محمد بن يعقوب) فلم أعثر على ذلك . وإليك الخبر مع تصحيح النسبة :

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٢ : ٥١٢ — دار صادر ١٩٦٠ .

« وحدث أحمد بن أبي يعقوب الكاتب قال : لما كانت ليلة عيد الفطر سنة ٢٩٢ — تذكرت ما كان فيه آل طولون ، وملونات البنود والأعلام وشهرة الثياب ، وكثرة الكراع ، وأصوات الأبواق والطبول ، فاعترتني كذلك فكرة ، ونمت في ليلتي فسمعت هاتفاً يقول :

ذهب الملك ، والتملك والزينة لما مضى بنو طولون . كما رأيت سبعة أبيات أخرى من (الكامل) قد نسبت إليه في هذه الملحقات من (البلدان) وهي في الجزء نفسه من (الخطط) ص ٦٠٧ — وهي :

إن كنت تسأل عن جلالة ملكهم ... فارتع وعج بمراتع الميدان
وانظر إلى تلك القصور وما حوت ... وامرح بزهرة ذلك البستان
وإن اعتبرت ففيه أيضاً عبرة ... تنبيك كيف تصرف العصران
يا قتل هرون اجتثت أصولهم ... وأشبت رأس أميرهم شيبان
لم يغن عنهم بأس قيس إن غدا ... في جحفل لجب ولا غسان
وعدية البطل الكمي وخزرج ... لم ينصرا بأخيهما عدنان
زفت إلى آل النبوة والهدى ... وتمزقت عن شيعة الشيطان (١)

وهرون المذكور هو ابن خمارويه . وشيبان وعدي هما عماه اللذان قتلاه ، كما يحكي ابن تغرى بردى (٢) ، وبقتله تبددت الدولة الطولونية على يد محمد بن سليمان ، الذي جمع آل طولون وكانوا سبعة عشر فقتلهم سنة ٢٩٢ هـ (٣) ، وبشر الخليفة المكتفي بخبر الفتح .

كما نرى في كتاب (الولاة وكتاب القضاة) لأبي عمر محمد بن يوسف

---

(١) البلدان : ٣٠٢ — وخطط المقريزي ، ١ : ٦٠٧ .
(٢) النجوم الزاهرة : ٣ : ٩٨ .
(٣) البداية والنهاية : ١١ : ٩٩ — المعارف — بيروت .

الكندى المصرى(١) ، زيادة أبيات أخرى من (الخفيف) لليعقوبى فى الموضوع ذاته وهى :

نقمة أرسلت من الشرق تهوى فأناخت على بنى طولونا
كيف يرجى صلاح هذى البرايا وابن أبا يسوس دنيا ودينا
بأبى خبة ورأى غريب كان يمضى شرائع الحكم فينا
ما رأينا من آل طولون إلا ساءه (٢) فى بطالة مرهونا

وزيادة أخرى من شعره فى الموضوع من (الكامل) (٣) .

الدار بعد تفرق الأظعان مسرورة بتفرق السكان
لم تبد من جون (٤) على أربابها إذ فى الترحل راحة الحيران
رحلوا . ! فلا نزلوا بروض مزهر وعداهم سبل الغمام الدانى
حرموا صبيب المزن أنى يمموا وتقسمتهم سطوة الرحمن
ما كان أثقلهم على كتف العلى وأكف أيديهم عن الإحسان
ما كان أرذل دولة سعدوا بها وأحقها بتهدم الأركان
ما عاشروا نعم الإله بشكرها فأثابهم بمثوبة الكفران
ماذا أريحت مصر منه وما إلى أرض العراق مضى من البهتان ؟

وليس أمامنا من الأدلة ما يرجح نسبة هذه النصوص إلى أحمد بن يعقوب على وجه التصديق أو التكذيب ، حتى نرجح أن حياته قد امتدت لما بعد انتهاء الدولة الطولونية ، التى انتهت سنة ٢٩٢ هـ ، ولكنها تفيد من وجه

---

(١) الولاة وكتاب القضاة : ٢٥١ — بيروت ١٩٠٨ .
(٢) لعلها (تائها) .
(٣) نفس المرجع : ٢٥٢ .
(٤) لعلها (من حزن) كما أشار المحقق .

آخر أن المؤلف كان من شعراء عصره ، وأن هذه هى نظرته النقدية لسياسة الدولة الطولونية ، التى رثاها غيره ناثراً فى إثرها الدموع والزفرات !

مكانة اليعقوبى :

يعده بروكلمان (١) جغرافياً أكثر مما يعده مؤرخاً ، لأنه سلك ترجمته فى عداد الجغرافيين ، كما نرى أنه لم يشر إلى كتاب (مشاكلة الناس لزمانهم) الذى أشار إليه غيره على ما رأيت آنفاً ، ولكنه وقف مع بيان المخطوط والمنشور من الكتابين : التاريخ والبلدان ، وضمن حديثه فكرة صغيرة عن كل منهما ، فقال عن الثانى :

« ويعتمد الكتاب على مصادر أدبية ، ومعلومات ذكرها الرحالون ، ويعنى إلى جانب الطبوغرافيا ووصف المدن الكبيرة بالجغرافيا الاقتصادية وإحصاءات الجباية » .

وعن الثانى يقول :

« فالجزء الأول — وقد ضاعت مقدمته — يبدأ فى منتصف قصة آدم ، ويليها تاريخ آباء بنى إسرائيل ، وبخاصة بعد مغارة الكنز ، وتاريخ المسيح والرسل ، وملوك السريانيين ، وآشور ، وبابل ، والهند ، واليونان ، والروم وفارس ، وشعوب الشمال حتى الترك ، وملوك الصين ، ومصر ، والبربر والحبشة ، والبجة ، والزنج ، وأخيراً تاريخ عرب الجاهلية .

أما الجزء الثانى — وهو ضعف الأول تقريباً — فقد خصص لتاريخ الإسلام ، ولا يغض من قيمته ما فيه من ميل إلى الشيعة ، ولكن لا تذكر فيه المصادر ، وهو يقتصر فيما يتعلق بالتاريخ المعاصر على ملاحظات لا تنقع غلة ، وكثيراً ما يتضخم فيه العرض التاريخى بالخطب والرسائل ، ولكنه يشتمل على كثير من المعلومات القيمة ، المستقاة من مصادر قديمة جيدة .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ٤ : ٢٣٦ .

ويذكر اليعقوبى بصدد كل حكم . الوضع الذى كانت عليه الأفلاك عند بدايته » .

والمصدران اللذان اعتمد عليهما بروكلمان — عدا ثقافته الخاصة بدراسة المؤلف — هما : الإرشاد لياقوت : ٢ : ١٥٦ — ودائرة المعارف الإسلامية ٤ : ١٢٤٧ .

روزنثال :

« علم التاريخ عند المسلمين » :

ومن زاوية التقدير العلمى لابن يعقوب ، نرى لمعا منتثرة للعلامة (فرانز روزنثال) فى كتابه القيم (علم التاريخ عند المسلمين) إذ يقول عن دقة اليعقوبى :

« فأدق الأخبار عن تاريخ اليهود والنصارى (فيما فيهم الرومان) توجد — فيما عدا الكتب الأندلسية والغربية — عند اليعقوبى) (١) .

وفى عد كتابه فى التاريخ أحد الكتب المهمة فى تاريخ العالم يقول :

« نصادف فى أوائل القرن العاشر ثلاثة أنواع من تواريخ العالم ، كانت مسبوقة بكتاب (الأخبار الطوال) لأبى حنيفة الدينورى . . . » .

« إن أول الأنواع الثلاثة من التواريخ العالمية تاريخ اليعقوبى ، الذى فقدت من مقدمته عدة صفحات تشمل قصة الخليقة (٢) » .

وفى هذا المقام يذكر قيام دراسة اليعقوبى على أساس التعاقب الزمنى للشخصيات ، وإحلال التاريخ الثقافى محل التاريخ السياسى . مع الرجوع إلى المصادر الأصلية بقدر توفرها لديه .

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ١٣٠ .
(٢) نفسه : ١٨٤ .

« أما عن تاريخ العهد القديم والجديد ، فإنه لم يكتف بالأخبار الإسلامية ، بل رجع إلى الكتابات الأصلية ، مستعيناً ببعض الرواة ، وبذلك وصل إلى مستوى عال من الدقة . . . » .

وتعدد مصادر اليعقوبى يدفع روزنتال ليقول :

« وقد استمر يذكر قائمة للمراجع ، تكشف عن المصادر التى استخدمها حيث كانت لديه مكتبة تاريخية غنية ، لم يبق منها إلا النزر اليسير (١) » .

وأما عن سبق اليعقوبى للزمن والعلوم المستحدثة فيقول :

« فعندما كتب اليعقوبى فى القرن العاشر (يعنى الميلادى) كتاباً عنوانه « مشاكلة الناس لزمانهم » فإن المرء يستنتج منه أن فكرته عن التاريخ جاءت قريبة من الأفكار الحديثة عن التطور ، غير أنها ظلت سطحية ، ولم تنفذ إلى أعماق الفكرة الحديثة »(٢) .

ويمتدح روزنثال ابن يعقوب بعدم التوسع فى سرد الأشعار التى غصت بها كتب التاريخ الإسلامية ، كما وصف منهجه بالجودة فى اتخاذ عهود حكم الحكام مبدأ فريداً فى الترتيب (٣) ، كما لم ينس الموازنة بينه وبين المسعودى ، فى الجمع بين الجغرافيا والتاريخ ، حيث مزج المسعودى بينهما فى كتابه بأسلوب رائع ، بينما أبقى اليعقوبى كتبه الجغرافية والتاريخية منفصلا بعضها عن بعض (٤) . .

ويشيد روزنتال بتجارب اليعقوبى وسعاناته فى سبيل تحصيل معلوماته التى جاء وصفه إياها فى مقدمة كتابه (البلدان) « فكل من يقرأ المقدمة التى

---

(١) علم التاريخ عند المسلمين : ١٨٤ .
(٢) نفسه : ٢٦ .
(٣) نفسه : ٩٧ — ١٢٦
(٤) التاريخ عند المسلمين : ١٥١ .

كتبها اليعقوبى لكتابه الجغرافى (البلدان) لابد أن يتذكر أولئك الرحالة الباحثين عن المعرفة ، أمثال هيكاتيوس ، واهتمامهم بالشعوب والبلاد الأجنبية » (١) .

ويمتدحه بالاهتمام بالنصوص والوثائق فيقول :

« أما اليعقوبى فقد خصص فصلا خاصاً فى تاريخه لمكاتبات الرسول والخلفاء الراشدين ، والرسائل الواردة من العمال الأجانب ، وهى رسائل طريفة جدا » (٢) .

ولا شك أن هذه الدراسة النقدية الحصيفة منصفة لليعقوبى ، ورافعة لنظرة الدارسين نحوه ، دون تحيز لا يسنده دليل .

مشاكلة الناس لزمانهم :

الذى يبدو من كتابات المترجمين والنقاد ، أنهم لم يطلعوا على هذه الرسالة الصغيرة الحجم ، فحديثهم عنها بالسماع ، إذ لم يصفها أحدهم — كما صنعوا مع كتبه الأخرى — بالصغر أو الكبر أو عدد الصفحات أو المجلدات ، أو تناول شىء من المضمون ، حتى روزنتال الذى اتخذ من عنوانها استدلالا على اتجاه اليعقوبى ، الذى قارب المحدثين فى استنتاج القوانين الإجتماعية والإنسانية من مسار التاريخ .

والنسخة الموجودة فى مكتبة (مراد ملا) هى من سبع ورقات ، مسطرتها واحد وعشرون سطراً ، من القطع (١٨—٢/١٢٧ سم) وهى ضمن مجموعة من ٧٩ (أ) / ٨٦ (أ) وقد حررت فى القرن التاسع الهجرى بخط النسخ ، ينقصها إجادة ضبط الأعلام بالإعجام ، وعدم وضوح بعض الألفاظ ، التى لعل الناسخ لم يفهم مدلولها فرسمها على التقريب ، مما دعانا إلى مراجعة كتب التاريخ المختلفة للمؤلف وغيره ، وكثير من المراجع والمظان ،

---

(١) نفسه : ١٥٤ .

(٢) نفسه : ١٦٨ .

التى نطمئن بها على تحقيق النص ، ليكون أقرب إلى الكمال إن لم ندركه وكان العمل فى صورته الأولى معتمداً على (الفيلم رقم ٩٢٢) الذى أخذنا صورته من معهد المخطوطات ، مسترشدين بالجزء الثانى من الفهرس التاريخى ، ونسأل الله أن يلهمنا السداد فيما توليناه .

موضوع الكتاب

بين الفكر والتطبيق :

يبدو من استهلال المخطوطة أنها مسبوقة بكلام مفقود — كما سترى — ولكنها بحالها تدور على محور هو عنوان الكتاب ، حيث يصور العنوان الفكرة ، ويمثل الكتاب التطبيق .

والفكرة ناتجة عن استقراء للمعتاد من التبعية بالتقليد ، يسرع بها العامة للخاصة ، فى جميع العصور والأقطار .

والتقليد من غرائز الإنسان المبكرة منذ الطفولة ، وهو وسيلة أولية من وسائل اكتساب المهارات والمعارف ، دون تفريق — أو بتفريق — بين الضار والنافع ، إذ يقلد الإنسان أحياناً فيما يجره نحو حتفه .

والحامل على التقليد الاستهواء ، أو تقدير المنفعة ، أو حب إظهار القدرة ، أو النفاق على وجه التقية أو المجاملة . . .

وكما تسم البيئة الطبيعية نباتها وحيوانها بميسمها ، فنرى نبات الصحراء وحيوان الصحراء يختلف فى مميزاته عن الحيوان والنبات فى المروج الخضراء وشواطىء الأنهار والغدران — تسم البيئة الاجتماعية أبناءها بالغالب عليها من طرق العيش واكتساب المظاهر فى إطارها الجامع ، فلا يفلت من هذا الانطباع إلا العاجز بسبب من أسباب العجز ، أو الرافض لما عليه المجتمع ، لأنه ذو نزعة سلوكية مثلها الأعلى غير متربع على العرش فى زمن رفضه .

وكما يتخذ الأطفال من الأهل والأساتذة نماذج عليا يقلدون ما يستهوى

عقولهم منها ، فإن الشعوب مع الملوك والرؤساء كالأطفال مع الآباء فى ذلك التقليد . . ولهذا يكون من واجب الكبار لله ، ثم للأمة والتاريخ ، أن تكون مظاهر حياتهم وسلوكهم على النهج المرضى ، حتى لا ينحدروا بالتابعين والرعايا المقلدين عن مستوى النبلاء الناهضين ، الذين يقدرون حرمة الدين والإنسان والحيـــاة .

لهذا شددت رسالة الإسلام على ضمير الراعى ليعرف قيمة التبعة ، وليعلم أنه مسئول أمام الله عن رعيته حفظ أم ضيع ، وأعظمت الجزاء لمن سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ولمن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

هذه الحقيقة الثابتة بالاستقراء « مشاكلة الناس لزمانهم » وعلى رأس الزمان السادة من ملوك وحكام ، مثل لها اليعقوبى فى فترة من عمر البشر ، وفى قطاع من التاريخ الإسلامى ، يبدأ بخلفاء الإسلام وأولهم (أبو بكر الصديق رضى الله عنه) وينتهى بالخليفة (المعتضد) الذى ولى الخلافة سنة ٢٧٩ هـ ، وهو آخر الخلفاء فى حياة المؤلف ، إذا صح أن وفاة اليعقوبى كانت سنة ٢٨٤ هـ فقد توفى المعتضد سنة ٢٨٩ هـ .

أثبت المؤلف على مد هذه الفترة ، تطبيق المثال على الحقيقة ، من مشابهة الناس للحاكم ، واقتدائهم به فى الظواهر العامة للسلوك .

هذه الظاهرة أو الحقيقة الاجتماعية فى تاريخ البشر ، لا ينفرد اليعقوبى بالحديث عنها ، إذ هى تفصيل فى كتابه لما أجمل قبله فى قولهم : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم .

وقولهم : الناس على دين ملوكهم . وقد نلمح مغزى هذه الظاهرة فى القول الشائع :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وممن تحدث فى المعنى دون تفصيل ، ابن طباطبا العلوى فى كتابه

(تاريخ الدول الإسلامية) حيث يقول فى خواص الملوك :

« واعلم أن للملك أموراً تخصه ، يتميز بها عن السوقة ، فمنها أنه إذا أحب شيئاً أحبه الناس ، وإذا أبغض شيئاً أبغضه الناس ، وإذا لهج بشىء لهج به الناس ، إما طبعاً أو تطبعاً ، ليتقربوا بذلك إلى قلبه ، ولذلك قيل : الناس على دين ملوكهم . فانظر كيف كان زى الناس فى زمن الخلفاء ، فلما ملكت هذه الدولة ، ، وأسبغ الله إحسانها ، وأعلى شأنها ، غير الناس زيهم فى جميع الأشياء ، ودخلوا فى زى ملوكهم بالنطق ، واللباس ، والآلات والرسوم ، والآداب ، من غير أن يكلفوهم ذلك أو يأمروهم به ، أو ينهوهم عنه . ولكنهم علموا أن زيهم الأول مستهجن فى نظرهم ، مناف لاختيارهم ، فتقربوا إليهم بزيهم ، وما زال الملوك فى كل زمان يختارون زياً وفناً فيميل الناس إليه ، ويلهجون به ، وهذا من خواص الدولة وأسرار الملك(١) »

والثعالبى فى كتابه (الغرر فى سير ملوك الفرس) يذكر مقتطفات من كتاب « البدء والتاريخ » للمطهر ، عن أديان الهنود وعاداتهم وقوانينهم فيقول :

« إن الكلام على هذه الأمور هو كالكلام على ملوكهم ، لأن الناس على دين ملوكهم ، وخاصة الهنود ، الذين يضحون بأنفسهم من أجل إعلاء ملوكهم . . . » (٢) .

كما كتب ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) فصله الثالث والعشرين من مقدمته « فى أن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب : فى شعاره ، وزيه ، ونحلته ، وسائر أحواله وعوائده » (٣) .

---

(١) تاريخ الدول الإسلامية : ٢٦ .

(٢) علم التاريخ عند المسلمين : ١٣١ عن مخطوطة الغرر ٢٤٧ - باريس .

(٣) مقدمة ابن خلدون : ١٤٧ .

« والسبب فى ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فى من غلبها وانقادت إليه ، إما لنظره بالكمال بما وفر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعى ، إنما هو لكمال الغالب ، فإذا غالطت بذلك واتصل لها اعتقاداً فانتحلت جميع مذاهب الغالب وتشبهت به ، وذلك هو الاقتداء . أو لما تراه — والله أعلم — من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس ، وإنما هو بما انتحلته من العوائد والمذاهب ، تغالط أيضاً بذلك عن الغلب ، وهذا راجع للأول .

ولذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب فى ملبسه ، ومركبه ، وسلاحه ، فى اتخاذها وأشكالها ، بل وفى سائر أحواله . .

وانظر فى الأبنـــاء مع آبائهم : كيف نجدهم متشبهين بهم دائماً ، وما ذلك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم ، وانظر إلى كل قطر من الأقطار : كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان فى الأكثر ، لأنهم الغالبون لهم ، حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها ، فيسرى إليهم من هذا التشبه والاقتداء حظ كبير . كما هو فى الأندلس لهذا العهـــد مع أمم الجلالقة ، فإنك تجدهم يتشبهون بهم فى ملابسهم وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى فى رسم التماثيل فى الجدران والمصانع والبيوت ، حتى لقد يستشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه من علامات الاستيلاء والأمر لله . وتأمل فى هذا سر قولهم : العامة على دين الملك ، فإنه من بابه ، إذ الملك غالب لمن تحت يده ، والرعية مقتدون به ، لاعتقاد الكمال فيه ، اعتقاد الأبناء بآبائهم ، والمتعلمين بمعلميهم . . . » .

خصوصية الملك :

غير أن للملوك مع هذا نزعة حب التفرد ببعض المزايا ، التى لا يحبون المشاركة فيها ، لأنهم يرون فى مشاركتهم انتقاصاً لعظمتهم ، كما يشير

لجاحظ (ت٢٥٥ هـ) إذ يقول : (١) .

« فأما كل ما أمكن الملك أن ينفرد به دون خاصته وحامته ، فمن أخلاقه أن لا يشارك أحداً فيه . وكذا حكى عن أنو شروان ومعاوية بن أبي سفيان : وبعض أهل العلم يحكى عن الرشيد ما يقرب من هذا . » .

« ألا ترى أن الأمم الماضية من الملوك لم يكن شيء أحب إليهم من أن يفعلوا شيئاً تعجز عنه الرعية ، أو يتزيوا بزى ينهون الرعية عن مثله ؟ » .

فمن ذلك أردشير بن بابك ، وكان أنبل ملوك بنى ساسان . كان إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد فى المملكة على رأسه قضيب ريحان متشبهاً به ، وكان إذا ركب فى لبسه لم ير على أحد مثلها ، وإذا تختم بخاتم فحرام على أهل المملكة أن يتختموا بمثل ذلك الفص وإن بعد فى التشابه .

. . . وطاعة أهل المملكة أن تتحامى أكثر زى الملك ، وأكثر أحواله وشيمه ، حتى لا يأتى مالابد لها منه .

وهذا أبو أحيحة سعيد بن العاص فى مكة ، كان إذا اعتم بمكة لم يعتم أحد بعمة ما دامت على رأسه .

وهذا الحجاج بن يوسف كان إذا وضع على رأسه طويلة لم يجترىء أحد من خلق الله أن يدخل وعلى رأسه مثلها . . . » .

« ومن قصد إلى أن يشرك الملك فى شيء يجد عنه مندوحة ومنه بدا بالمهل المبسوطة والأيام المحدودة ، عاص مفارق للشريعة (٢) » إلا أننا إلى يوم الناس هذا ، ، نجد الصورة العامة التى رسمها اليعقوبى لتلك المتابعة ، فالدولة التى ينضبط سلوك حكامها على سنن الشريعة والقانون ، تقود شعبها فى استقامة وحزم ، والتى يصيبها فى السادة التحلل والغفلة ، يصيبها فى شعبها

---

(١) التاج المنسوب للجاحظ : ٥٥ — وقد نقل الأبشيهى كلامه دون نسبته فى (المستطرف : ١ : ١٠٨) .

(٢) التـــاج : ٩٤ .

ما أصاب السادة من غيبوبة عن الهدى ، فترتدى ألف زى من الأخلاق واللباس والمعاملة . وإذ غاب العرب على البلاد المفتوحة رأينا زى العرب ولغة العرب تسود المغلوب . وإذ غلب الأتراك رأينا مظهر الأتراك يسود سواد الحياة فى الزى والمراسم والعادات ، وقد شهدنا بعض الملوك يعنى لحيته لعلة فى البشرة ، فيسرى إعفاء اللحى فى شعبه بما لم يفعله وازع العقيدة . وإلى عهد قريب كان الدخول من المرءوس على الرئيس بلا (طربوش) جناية وقحة . . ومن عهد قريب عريت عنه رءوس الحكام فعريت رءوس الأتباع .

تلك هى الفكرة لكتاب اليعقوبى وهذا هو التطبيق .

عملنا فى الكتاب :

لم نعثر للكتاب على مخطوطة أخرى ، فعمدنا إلى كتب التاريخ ، والتراجم ، والبلدان . واللغة ، نصوب منها ما يعوزه التصويب ، وقد حصلنا بذلك على صورة إن لم تكن الأصل فى كلمة منها فهى لا تفارقه كثيراً ، وقد رأينا زيادة التفسير والتكميل أمراً لازماً لتمام الفائدة فذيلنا بهوامش أكثرها منقول منسوب ، ولم نجد غنى عن التعريف بالمؤلف الذى لم تطل التراجم حديثها عنه ، فحررنا هذا التقديم للتعريف به . وبيان منزلته ، وكان ختام التقديم هذه الدراسة المتممة لفكرة « مشاكلة الناس لزمانهم » حتى يتضح الموضوع بصورة أكبر ، وبالله التوفيق ومنه العون والسداد .

المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

كتاب مشكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم في كل عصر ٥

قال الشيخ الإمام الحافظ العلامة احمد بن علي بن يعقوب بن معمر بن واضح رحمه الله

اما بعد فان ملوك الحق في الاسلام فان المسلمين في كل عصر تبع للخليفة يسلكون

سبله ويقتدون به ويعملون على قدر سيرته ومنه ولا يخرجون عن اعماله

وافعاله وكان ابو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان هذا الناس

واشدهم تواضعا وتقللا في لباسه وكان يلبس وهو خليفة الشملة والعباءة

وقد مشى تحت اقدام العرب وملوك العجم وتحكم البيجان وبرود الوشي

والحبر فلما رأى القوم تواضعه ولباسه تزعوا ما كان عليهم وقد هموا مذهبه

وافتقروا اثره وكان ذو الكلاع ملك حمير ممن قدم على ابي بكر في عشيرته

وقومه وعلى تاج وكان له عشيرة الف عبد هو لاء محاليفه فلما رأى

ابا بكر قال ما ينبغي لنا ان نفعل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

نزع لباسه الاول وتشبه بابي بكر حتى انه رئي بسوق المدينة يحمل

جلد شاة محمل فتاه مالك له عشيرته وقومه فضحكنا انت سيدنا تحمل شاة

من المهاجرين والانصار قال فاذا رأيتم مني ان اكون جبارا في الجاهلية جبارا

في الاسلام وكان اسلم من نسل ذلك كندة يلبس التاج وتحيا بتحته

الملوك فلما اسلم بعد ارتداده وزوجه ابو بكر اخته ام فروة بنت ابي قحافة

تواضع بعد التكبر وتذلل بعد التجبر حتى كان يسد عليه شملة خلفه ثم

نفذنا البعير بين كتفيه بابي بكر واطرد اخلاقه التي كان عليها في الجاهلية

وكان ابو بكر رحمه الله لا يحمل احدا من الاشراف على الحمار وخرج له مرة

سفيان وسهيل ابنا عمرو فمر بهما فحمل بعيرا عليه واوسع لهما فنزلا له وتواضع

صورة الصفحة الأولى من المخطوطة

بافضال ولا جود وكان العسكر ظاهرا فان اغلب الناس عليه واشدهم تقدما
عنده ولم يكن ممن يرجى فضله ولا يخاف مكروهه وكان عبد الله بن يحيى
ابن خاقان وزيره وكان طالبا للسلامة له موجودة في نفسه ولا افضال له
على احد الا ان الناس امنون منه المكروه وكان يعتمد عليه بقول لا حقيقة له
وكان احمد بن اسرائيل يقول تعلمنا منه الكذب وكان المنتصر بن المتوكل
فلم تطل ايامه فتعرف مذاهبه غير انه كان بخيلا وكان احمد بن الخصيب كاتبه
ووزيره فكان قليل الخير كثير الشر شديد الجهل وكان المستعين وهو
احمد بن محمد بن المعتصم فكان اول خليفة وسع اكام الثياب فجعلها ثلاثة اثواب
وخرقها وصغر العلانس وقصرها ولا تعرف له مذهب اتبعه الناس عليه
ولا اخلاق شبه الناس به فيها وشغل عن كل شيء كان يتهيأ عليه من الخلافة
والخلع وكان المعتز وهو ابو عبد الله بن المتوكل اول خليفة ركب
بحلية الذهب وكانت الخلفاء تركب بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق
والسيوف والسروج واللجم فلما ركب بحلية الذهب اتبعه الناس على ذلك
ولا تعرف له اخلاق تحمد ولا اذم سمع ولد المعتدي وهو محمد بن الواثق
مدحت الى القضاء لدين وجلس للمظالم ووقع بخطه وقرب العلماء وكان
يقول يا بني عاش دهرا حتى اسلك مسلك عمر بن عبد العزيز فاكون فيكم
مثله في حياته وتقتلني الليالي والعرائر قوم الناس على انه يذهب
مذهب ابيه في القول بخلق القرآن وابو احمد وهو احمد بن المتوكل
فانه لم تطل ايامه حتى غلب على امره فآثر اللذة واعتكف على الملاهي وغلب
اخوه ابو احمد على الامور حتى حظر عليه وحبسه وكان اول خليفة قهر وحجر
عليه وخطر [illegible] وهو احمد بن محمد بن احمد بن المتوكل فكان رجلا

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيـــم

وصلى الله على سيدنا محمد

كتـــاب

مشاكلة الناس لزمانهم ، وما يغلب عليهم فى كل عصـــر

قال الشيخ الإمام الحافظ العلامة أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن واضح رحمه الله :

فأما الخلفاء وملوك الإسلام ، فإن المسلمين فى كل عصر تبع للخليفة ، يسلكون سبيله ، ويذهبون مذاهبه ، ويعملون على قدر ما يرون منه ، ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله .

أبو بكـــر :

فكان أبو بكر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) أزهد الناس ، وأشدهم تواضعاً وتقللا فى لباسه ، وكان يلبس (٢) — وهو خليفة — الشملة

---

(١) كانت بيعته رضى الله عنه يوم الإثنين ، لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة ١١ هـ (تاريخ اليعقوبى : ٢ : ١٢٧) .

(٢) من قوله عندما حضرته الوفاة : « أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ، ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا . . . » (طبقات ابن سعد : ١٣٩) .

قال ابن طباطبا — والأمر كما قال — : « فأما خلافة الأربعة الأول . . . فإنها كانت أشبه بالرتب الدينية من الرتب الدنيوية فى جميع الأشياء كان أحدهم لبس الثوب من الكرباس الغليظ ، وفى رجله نعلان من ليف ، وحمائل سيفه ليف ، ويمشى فى الأسواق كبعض الرعية . . . وكانو يعدون هذا من الدين الذى بعث به النبى صلوات الله عليه وسلامه » (تاريخ الدول الإسلامية : ٢٩) .

والعباءة . وقدمت عليه أشراف العرب وملوك اليمن وعليهم التيجان وبرود الوشي والحبر ، فلما رأى القوم تواضعه ولباسه نزعوا ما كان عليهم ، وذهبوا مذهبه ، واقتفوا أثره .

وكان ذو الكلاع ملك حمير فيمن قدم على أبي بكر في عشيرته وقومه وعليه التاج ، وكان له عشرة آلف عبد خولا في مخاليفه ، فلما رأى لباس أبي بكر قال : ما ينبغي لنا أن نفعل بخلاف ما عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزع لباسه الأول ، وتشبه بأبي بكر ، حتى إنه رئي في سوق المدينة يحمل جلد شاة على قفاه ، فقالت له عشيرته وقومه : فضحتنا ! أنت سيدنا ! تحمل جلد شاة بين المهاجرين والأنصار ؟ .

قال : فأردتم مني أن أكون جباراً في الجاهلية جباراً في الإسلام ؟ .

وكان الأشعث بن قيس ملك كندة يلبس التاج ، ويحيا بتحية الملوك فلما أسلم بعد ارتداده وزوجه أبو بكر أخته أم فروة بنت أبي قحافة (١) ، تواضع بعد التكبر ، وتذلل بعد التجبر ، حتى كان يشد عليه شملة خلقة ، ثم يهنأ البعير بيده . تشبهاً بأبي بكر . واطراحاً للأخلاق التي كان عليها في الجاهلية .

وكان أبو بكر رحمه الله ، لا يحمل أحداً من الأشراف على التجاوز ، حتى إنه بلغه عن أبي سفيان بن حرب أمر يكرهه ، فدعا به ، فجعل يصيح عليه وأبو سفيان يتذلل له ، ويتواضع بين يديه ، وأقبل أبو قحافة يقوده قائده — وكان قد عمي — فسمع صياح أبي بكر ، فقال لقائده : على من يصيح أبو بكر ؟ قال : على أبي سفيان بن حرب ، قال : أبا عتيق ! أعلى أبي سفيان ترفع صوتك ؟ لقد تعديت طورك ! فقال : يا أبت إن الله قد رفع بالإسلام قوماً ووضع آخرين ! .

---

(١) كان الأشعث قد ارتد فيمن ارتد ، فلما حصر طلب الصلح والأمان لعشيرته ، فمن عليه أبو بكر وقد جيء به موثقا وأطلقه ، وزوجه أم فروة أخته .

٢ : ١٣٢ — تاريخ اليعقوبي .

عمر :

وكان عمر بن الخطاب (١) رحمه الله تعالى — مع تواضعه وخشونة ملبسه ومطعمه — شديداً فى ذات الله ، فكان عماله وسائر من يحضره أو يغيب عنه يتشبهون [به](٢) ولا يفارق أحد [مذهبه] (٣) من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان يلبس الجبة الصوف ، ويشتمل بالعباءة ، ويهنأ (٤) البعير ، ويحمل قربة (٥) الماء على ظهره لأهله ، وكان العامل من عماله وهم أمراء الأمصار — وقد فتح الله عليهم ، وخولهم ، ومكن لهم ، وأغناهم ، وكفاهم (٦) يتحفون (٧) ، ويخلعون النعال ويلبسون الخفاف ، ويلبسون غلاظ الثياب ، وإذا قدموا عليه قدموا شعثا ، غبراً ، غلاظاً ثيابهم ، شحبة ألوانهم . فإن رآهم ، أو بلغه عنهم غير ذلك أنكره عليهم . وكان ركوبهم الإبل أكثر من ركوبهم للخيل على التشبه بعمر ، وسلوك فعله ، وما كانوا عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إنه رئى على أبى عبيدة بن الجراح — وهو أمير الشام وقد فتحها الله عليه — جبة صوف قد تغيرت رائحتها ، فقال

---

(١) ولى عمر رضى الله عنه الخلافة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة ، وقيل : لسبع بقين منها سنة ١٣ هـ (٢ : ١٣٩ — اليعقوبى) .

وحسبه من خشونة ملبسه ما أخبر به أنس : لقد رأيت بين كتفى عمر أربع رقاع فى قميص له ، وما ذكره أبو محصن الطائى : رئى على عمر بن الخطاب وهو يصلى إزار فيه رقاع بعضها من أدم وهو أمير المؤمنين . (٧ : ٢٣٧ — ٣ — الطبقات)

أما عيشه ، فعن الحسن قال : كلموا حفصة أن تكلم أباها أن يلين من عيشه شيئاً ، فقالت : يا أبتاه ، أو يا أمير المؤمنين ، إن قومك كلمونى أن تلين من عيشك : فقال : غششت أباك ونصحت لقومك . (السابق ١٩٩ : ٦) .

(٢) و (٣) ما بين الحاصرتين مزيد .

(٣) يطلى البعير بالهناء وهو القطران ليبرأ من جربه .

(٤) فى الأصل : القربة الماء .

(٥) فى الأصل : وأكفاهم .

(٦) يمشون حفاة عن قصد منهم .

بو عبيدة : لقد جلست إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما هو أشد رائحة من هذا فما أنكره .(١) .

وكان سلمان الفارسى عامل عمر بن الخطاب على المدائن ، وكان يلبس غليظ الثياب ، ويركب الحمارة ببرذعة مرسنة بحبل (٢) ليف . وحضرته الوفاة ، فأتاه سعد بن أبى وقاص فقال له : أوصنى يا أبا عبدالله ! فقال : نعم . اذكر الله عند همك إذا هممت ، وعند لسانك إذا حكمت(٣) ، وعند يدك إذا قسمت ! وجعل سلمان يبكى ! فقال له : يا أبا عبدالله ، ما يبكيك؟ قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم [يقول] : (٤) « إن فى الآخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون ! » وأرى هذه الأساور حولى ! فنظرنا فما رأينا فى بيته إلا إداوة . أو ركوة ، أو قدراً ، أو مطهرة (٥) .

وولى عمر بن الخطاب عمير بن سعد الأنصارى جند حمص ، فأقام حولا ثم انصرف على حمله ، على الحال التى مضى من عند عمر بها (٦) ، فقال عمر : ويح قوم وليت عليهم أما عرفوا لك حقاً ! أو كما قال . وحج عمر ابن الخطاب فقال لابنه عبد الله : كم أنفقنا فى حجنا ؟ فقال : ستة عشر ديناراً . فقال : لقد أسرفتم فى هذا المال .

---

(١) الحق أن الإسلام لم يفرض هذا الزهد البالغ فى طيبات الحياة من الحلال على أحد ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم — وهو إمام الأمة وهاديها إلى الحق — أطيب الناس جسما وثوباً ، وكان يرى وبيص الطيب فى مفرقه . وإنما هى شدة الخوف من الدنيا وشدة الرجاء فى نعيم الآخرة ، قد صرفت الهمم عما أحل لها ، لا تحريماً لما أحل لله ، بل تواضعاً لجلاله ورجاء لما عنده ، وحسب أبى عبيدة إشفاقاً من الدنيا على شدة بلائه أن يقول : وددت أنى كبش فذبحنى أهلى فأكلوا لحمى وحسوا مرقى ! رضى الله عن أمين هذه الأمة أبى عبيدة بن الجراح .

(٢) فى طبقات ابن سعد « حدثنا أبو المليح عن حبيب بن أبى مرزوق عن هريم قال : رأيت سلمان الفارسى على حمار عرى ، وعليه قميص سنبلانى قصير ضيق الأسفل — وكان رجلا طويل الساقين كثير الشعر ، وقد ارتفع القميص حتى بلغ قريباً من ركبته . قال : ورأيت الصبيان يحضرون خلفه ، فقلت : ألا تنحون عن الأمير ؟ فقال : دعهم فإنما الخير والشر فيما بعد اليوم » (٢ : ٦٢ — الجزء الرابع — طبقات ابن سعد) .

(٣) فى الأصل (حكت) .

(٤) مزيد .

(٥) الإداوة بالكسر : المطهرة (القاموس المحيط) والركوة لعلها حوض أو حفرة لتلقى الماء .

(٦) فى الأصل « على الحال التى مضى عليها من عند عمر بها » .

عثمـــان :

وكان عثمان بن عفان (١) رحمه الله فى السماحة، والجود ، وصلة الأرحام ورفع القرابة ، واتخاذ المال ، على ما كان عليه ، فامتثل الناس فعله ، فبنى عثمان داره بالمدينة ، وأنفق عليها مالا جليلا ، وشيدها بالحجارة ، وجعل على أبوابه مصاريع الساج ، واتخذ أموالا بالمدينة وعيوناً وإبلا (٢) .

قال عبدالله بن عتبة : كان لعثمان بن عفان يوم مات عند خازنه مائة ألف وخمسون ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وكانت ضياعه بئر أريس ، وخيبر ، ووادى القرى ، قيمته (٣) ألف دينار وخلف خيلا وإبلا .

وفى أيام عثمان اتخذ أصحاب (٤) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأموال ، وبنوا الدور ، فبنى الزبير بن العوام داره المشهورة بالبصرة ، وفيها الأسواق والتجارات ، وبنى الزبير أيضاً داراً بالكوفة . وداراً بمصر ، وداراً بالإسكندرية ، وبلغ ثمن مال الزبير خمسين ألف دينار ، وترك ألف فرس ، وألف مملوك ، وخططا بمصر ، والإسكندرية ، والكوفة ، والبصرة .

وبنى طلحة بن عبيد الله دوراً ، وعقارات ، قومت بمائة ألف دينار ، وكانت غلته بالعراق فى كل يوم ألف واف ، وغلته بالشام عشرة آلاف دينار ، وبنى داره بالجص والآجر والساج ، وترك من الذهب والفضة مالا جليلا .

---

(١) كانت ولاية عثمان رضى الله عنه يوم الإثنين مستهل المحرم سنة ٢٤ هـ (٢ : ١٦٢ — اليعقوبى) .

(٢) عن عبيدالله بن دارة : كان عثمان رجلا تاجراً فى الجاهلية والإسلام ، وكان يدفع ماله قراضاً . وعن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه : أن عثمان دفع إليه مالا مضاربة على النصف » (٢ : ٤١ ج ٣ الطبقات) فلا عجب أن يصنع عثمان رضى الله عنه ما صنع ، والله تعالى لم يحرم الكسب الحلال والاستمتاع بالطيبات من الرزق مع أداء حقه تعالى منها .

(٣) لعلـــه (قيمتها) .

(٤) يعنى أغنياء الصحابة لا جميعهم .

وبنى عبد الرحمن بن عوف داره فوسعها ، وكان له ألف بعير ، وعشرة آلاف شاة ، ومائة فرس ، وبلغ ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألف دينار .

وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق (١) فشيدها ، وجعل لهـا شرفات . قال سعيد بن المسيب : وترك زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس ، ومالا وضياعاً ، وعيوناً ، مبلغها مائة ألف وخمسون (٢) ألف (دينار) .

وترك يعلى بن منية التميمى خمسمائة ألف دينار ، وعقارات ، وضياعاً ، وديوناً بقيمة ثلاثمائة دينار .

وبنى المقداد قصره بالجرف (٣) بالدين ، وجصص باطنه وظاهره ، وجعل له شرفات ، ولم يفعل هذا أحد من الناس (٤) على عهد عمر ، وإنما فعلوه بعده .

عـلى :

وكان على بن أبى طالب عليه السـلام مشغلا أيامه كلها بالحرب ، إلا أنه لم يلبس ثوباً جديداً ، ولم يتخذ ضيعة ، ولم يعقد على مال إلا ما كان له بينبع ، و(٥) . . . . فما تصدق به ، وحفظ الناس عنه الخطب ، فإنه خطب بأربعمائة خطبة حفظت عنه ، وهى التى تدور بين الناس ، ويستعملونها فى خطبهم وكلامهم .

---

(١) العقيق : من أعظم وديان المدينة (٢٦ : آكام المرجان) .

(٢) فى الأصل : (وخمسين)

(٣) قرب المدينـة .

(٤) فى الأصل : « ولم يفعل أحد هذا من الناس هذا » .

(٥) كلمة مبهمة ، ولعل ما فى موضع النقط (وادى القرى والأذينة ورعد) وقد ذكر المسعودى أن تركته كانت سبعمائة درهم بقيت من عطائه أراد أن يشترى بها خادماً لأهله وقيل : ترك لأهله مائتين وخمسين درهماً ومصحفه وسيفه مروج الذهب .

ص ٦٠٩ — المجلد الأول طبعة التحرير سنة ١٩٦٦ بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

على أنه (رضى الله عنه) جعل ما كان له فى ينبع وغيرها صدقة جارية كما ورد فى وصيته التى ذكرها عبد الرازق فى مصنفه (١٠/٣٧٤) .

خلفاء بنى أمية

معاوية :

وكان معاوية بن أبى سفيان (١) ، فبنى القصور ، وشيد الدور ، وعلى الستور ، واتخذ الحرس ، واتخذ الشرطة ، وأقام الحجاب ، وبنى المقاصير فى المساجد ، وركب الدواب الهماليج بالسروج (٢) المصففة ، ولبس الخز والوشى ، واتخذ الصوافى (٣) والضياع ، وعمل له الطراز (٤) باليمن ، ومصر والإسكندرية ، والرها . فاتخذ أهله ، وولده ، وعماله ما اتخذ ، وفعلوا مثل ما فعل ، فبنى عمرو بن العاص داره بمصر ، واتخذ لنفسه الضياع ، وغرس فى ضيعته التى يقال لها : الوهط (٥) بالطائف ألف ألف عود كرم ، فكانت غلته عشرة آلاف ألف درهم . وخلف عمرو يوم مات ثلاثمائة ألف دينار ، وقال لما حضرته الوفاة : ياليتها كانت مائة ألف دينار (٦) .

---

(١) بويع معاوية فى الكوفة سنة ٤٠ هـ فى شهر ذى القعدة .

(٢) لعله (المفضضة) والهماليج من الهملجة لفظ فارسى معرب يدل على الفراهة .

(٣) لما ولى معاوية عبدالله بن دراج خراج العراق ، طلب أن يحمل إليه من مالها ما يستعين به ، فأخبره أنه كان لكسرى وآل كسرى صوافى يجتبون مالها لأنفسهم ، ولا تجر مجرى الخراج ، فكتب إليه ليحصيها ويستصفيها له ، ويضرب عليها المسنيات ، فبلغت جبايتها خمسين ألف ألف درهم من أرض الكوفة وسوادها ، وكذلك فعل بالشام والجزيرة واليمن . (٢ : ٢١٨ – اليعقوبى) .

(٤) الطراز بالكسر : علم الثوب معرب ، وطرزه تطريزاً أعلمه فتطرز . . . والنمط ثوب نسج للسلطان . (٢ : ١٨٠ – القاموس المحيط) .

(٥) فى القاموس : ٢ : ٣٩٢ – والوهط . . . مال لعمرو بن العاص بالطائف على ثلاثه ميال من وج ، كان يعرش على ألف ألف خشبة ، شراء كل خشبة درهم .

وقال القزوينى فى أخبار الطائف : وبها كرم الوهط : كرم كان لعمرو بن العاص معروشاً على ألف ألف خشبة شرى كل خشبة درهم . . .

(٩٨ : آثار البلاد وأخبار العباد)

وقد ورد ذكر (الوهط) فى وصيته التى ذكرها عبد الرزاق فى مصنفه ص ٣٧٧ من الجزء العاشر .

(٦) حين شارف عمرو الوفاة « نظر إلى ماله فرأى كثرته ، فقال : ياليته كان بعرا : يا ليتنى مت قبل هذا اليوم بثلاثين سنة ! أصلحت لمعاوية دنياه وأفسدت دينى ! آثرت دنياى وتركت آخرتى ! عمى على رشدى حتى حضرنى أجلى ! كأنى بمعاوية قد حوى مالى وأساء فيكم خلافتى ! » (٢ : ٢٢٢ – اليعقوبى) .

وفعل عبد الله بن عامر بن كريز عامل معاوية بالبصرة مثل ذلك : فحفر الأنهار ، وشيد القصور ، واتخذ الضياع ، والأموال والأخبية (١) بالبصرة ، ومكة ، والطائف .

وفعل زياد عامل معاوية على العراق ذلك بالكوفة ، والبصرة ، وسائر العراق ، واتخذ الضياع ، وبنى وشيد البنيان ، وخلف زياد يوم مات ستة آلاف ألف دينار ، فأخذها معاوية . وهكذا كان معاوية يقول لعماله ، وربما شاطر ورثته . .

وفعل مسلمة بن مخلد عامل معاوية على مصر مثل ذلك ، فاتخذ ضياعاً بمصر وقفها على قومه ، وخلف يوم مات ألف دينار ، وألف ألف درهم .

وجعل عقبة بن عامر الجهنى ، وكان عامل معاوية — أيضاً — على مصر ، ضياعاً بمصر ، وحبس بعضها ، وبنى داراً بمصر بالحجارة والجص ، وخلف ثلاثين ألف دينار وسبعمائة ألف درهم .

وباع حويطب بن عبد العزى داراً من معاوية بأربعين ألف دينار ، فقيل له : يا أبا محمد ، أربعون ألفا ؟ فقال : وما أربعون ألف دينار لرجل عليه ستة من العيال ؟ .

وكان معاوية يقول : أنا فتقت الملك .

يزيد بن معاوية :

وكان يزيد (١) بن معاوية صاحب طرد ، وجوارح ، وكلاب ، ولهو ، ومنادمة على الشراب . فغلب ذلك على أصحابه ، وفى عصره ظهر الغناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهى ، وأظهر الأشراف الشراب .

---

(١) فى الأصل الأصبنة

(٢) بويع مستهل رجب سنة ٦٠ هـ (٢ : ٢٤١ — اليعقوبى) وكان أشد الناس كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه ، ويهب لكل كلب عبداً يخدمه (٥٥ : تاريخ الدول الإسلامية) وكان موفر الرغبة فى اللهو والقنص والخمر والنساء والشعر (١١٣ : نفسه) .

عبد الملك بن مروان :

ثم كان عبد الملك بن مروان (١) ، فكان صارماً ، حازماً ، بخيلا ، يحب الشعر والفخر ، والتقريظ والمدح ، وكان فى عصره فحول الشعراء : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، وغيرهم . وكثر الشعر فى أيام عبد الملك ، وامتدحت الشعراء والأمراء والأشراف وطلبت الثواب .

وكان لعبد الملك إقدام على الدماء ومعاجلة ، فكان من عماله على مثل مذهبه : الحجاج بالعراق ، والمهلب بخراسان ، وهشام بن اسماعيل المخزومى بالمدينة ، وعبد الله بن عبد الملك بمصر ، وموسى بن نصير اللخمى بالمغرب ، ومحمد بن يوسف الثقفى أخو الحجاج باليمن ، ومحمد بن مروان بالجزيرة والموصل . وكلهم جائر ، ظالم ، غشوم ، عسوف ! وكان الحجاج من أظلمهم وأقدمهم على الدماء .

الوليد :

وكان الوليد (٢) بن عبد الملك جباراً ، عنيداً ، ظلوماً . وكان عماله فى جميع البلدان على مثل مذهبه ، فكان عمر بن عبد العزيز يقول : الوليد بالشام ، والحجاج بالعراق ، وعثمان بن حيان بالحجاز ، ومحمد بن يوسف باليمن ، وقرة بن شريك بمصر ، وموسى بن نصير بإفريقية ؟ امتلات الأرض جورا ! .

ولم نعرف من مذهب الوليد بن بناؤه المساجد(٣) ، فإنه بنى مسجد دمشق .

---

(١) ملك فى رمضان سنة ٦٥ هـ (٢ : ٢٦٩ — اليعقوبى) كان قبل الخلافة من فقهاء المدينة ، ويسمى حمامة المسجد لمداومة قراءة القرآن ، فلما استخلف انقلب ملكاً جباراً ، يدبر لملكه ودنياه : سلط الحجاج بن يوسف على الناس ، وغزا الكعبة ، وقتل عبدالله بن الزبير وأخا مصعباً قبله (١٢٢ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٢) ولى الوليد للنصف من شوال سنة ٨٦ هـ .

(٣) يخالف هذا قول ابن طباطبا : « وكان شديد الكلف بالعمارات والأبنية واتخاذ المصانع والضياع وكان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات » (١٢٧ : تاريخ الدول الإسلامية) .

سليمان بن عبدالملك :

ثم كان سليمان بن عبد الملك بن مروان (١) ، فكان صاحب طعام ، وأكل كثير يتجاوز المقدار ، ولباس الثياب الرقاق ، وثياب الوشي : جبابا ، وأردية ، وسراويلات ، وعمائم ، وقلانس ، فكان لا يدخل أحد من أهل بيته عليه إلا فى الوشي . وكذلك عماله ، وأصحابه ، وخدمه ، ومن فى داره . وكان لباسه فى ركوبه ، وجلوسه ، وعلى المنبر . وكان لا يدخل إليه أحد من خدمه إلا فى الوشي حتى الطباخ ، فإنه كان يدخل إليه فى جبة وشي وطولة وشي .

عمر بن عبد العزيز :

ثم كان عمر بن عبد العزيز بن مروان (٢) ، فولى بتواضع ، ونسك ، وتزهد . ودين . وتقريب لأهل الفضل ، فعزل عمال الوليد ، واستعمل أصلح من قدر عليه ، فكان عماله يذهبون مذهبه ، وارتفع عن الناس ما كانوا فيه من الجور والظلم ، ، وترك لعن على بن أبي طالب — عليه السلام — على المنابر ، وجعل مكانه : (اللهم اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم) (٣) فاستعمل الناس ذلك فى الخطبة إلى هذه الغاية .

---

(١) ولى للنصف من جمادى الأولى سنة ٩٦ هـ . كانت أيامه ذات فتوح متوالية ، وكان غيوراً شديد الغيرة ، وكان نهماً : فيقال : إن الطباخ كان يأتيه بالشواء فلا يصبر حتى يبرد ، يأخذه بكمه . وقد أهدى الرشيد إحدى جباب سليمان الملوثة الأكمام بالدهن للاصمعى حين حدثه الأصمعى بخبره ، وكان الرشيد يظنه أثر طيب . (١٢٨ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٢) ولى رضى الله عنه — لعشر خلون من صفر سنة ٩٩ هـ « وكان عمر بن عبد العزيز صاحب عبادة وتلاوة ، فكان الناس إذا تلاقوا فى أيامه سأل بعضهم بعضاً : ما وردك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ وكم تقوم من الشهر ؟ » .
(١٢٧ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٣) وقيل : إنه جعل مكانه قوله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . . الآية » فدحه بذلك الشعراء ومنهم كثير الذى يقول :

وليت فلم تشتم علياً ، ولم تخف بريا ، ولم تتبع مقالة مجرم

(١٢٩ : تاريخ الدول الإسلامية)

يزيد بن عبد الملك :

وكان يزيد بن عبدالملك (١) هو أول خليفة اتخذ قينة ، وغلبت على أمره امرأة ، فكانت حبابة جاريته المغنية تولى وتعزل ، وتطلق وتحبس ، وتأمر وتنهى ! وكان مع ذلك يسرع ، إلى الدماء والأموال ، وعاود عماله ما كانوا عليه من الجور .

هشـــام :

ثم كان هشام بن عبدالملك (٢) بن مروان . كان خشناً ، فظاً ، غليظاً ، بخيلا ، يجمع الأموال ، ويعمر الأرض ، ويستجيد كل شيء يعمل له من الكسوة والفراش ، ويعاقب على التقصير فيه بأغلظ عقوبة . وفى أيامه عمل الخز (٣) والرقم ، وكان الناس جميعاً في أيام هشام على مثل مذهبه ، فى منع ما بأيديهم ، وقلة الإفضال ، وانقطاع الرفد ، حتى إنه يقال : لم ير زمان أصعب على الناس من زمانه ، وذلك أنه منع ما كانت الخلفاء تفعله من البذل ، والعطايا ، والجوائز ، والصلات . فاستعمل (٤) الناس ذلك ، وسلكوا سبيله ، واقتدوا به . وقال له أبو حازم الأعرج (٥) : إنما أنتم سوق يحمل إليكم ما نفق عندكم .

---

(١) ولى فى رجب سنة ١٠١ هـ وهو « خليع بنى أمية : شغف بجاريتين اسم إحداهما سلامة واسم الأخرى حبابة ، فقطع معهما زمانه » وغنته حبابة يوماً فأقسم أن يطير . فقالت : على من تدع الأمة ؟ قال : عليك ، وقبل يدها ، حتى قال خدمه : سخنت عينك ما أسخفك . (١٣١ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٢) ولى فى رمضان سنة ١٠٥ هـ وكان من أحزم بنى أمية إلا أنه بخيلا كان حسودا فظا غليظاً ظلوماً . . . وعمل الخز الرقم وغيره ، والوشى والأرمنى وأصناف الثياب »
(٢ : ٣١٨ — اليعقوبى) والرقم — كما فى القاموس : ضرب مخطط من الوشى أو الخز أو البرد .

(٣) الرقم : ضرب مخطط من النسيج .

(٤) فى الأصل : (فاستعملوا الناس ذلك) .

(٥) كان أبو حازم الأعرج من الفقهاء الواعظين أيام هشام .
(٢ : ٣٣٠ : اليعقوبى)

الوليد بن يزيد :

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك(١) صاحب شراب ، ولهو ، وطرب ، وسماع للغناء ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه ، وبجالس اللاهين وأظهر الشراب والملاهى والعزف . وكان فى أيامه : ابن سريج المغنى ، ومعبد ، والغريض ، وابن عائشة ، وابن محرز ، وطويس ، ودحمان(٢). وغلبت(٣) شهوة الغناء على الأشراف ، واتخذالناس العيدان . وكان متهتكاً ، ماجناً ، خليعاً .

---

(١) ولى لعشر بقين من ربيع الأول سنة ١٢٥ هـ (٢ : ٢٣١ : اليعقوبى) بلغ من مجونه أنه أراد أن يبنى على الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو ، ووجه مهندساً لذلك . . . (٢ : ٣٣٣ : اليعقوبى) وقد أدى انهماكه فى اللهو ومغاضبته أكابر أهله إلى قتله . (٢٥٠ : تاريخ الخلفاء).

(٢) هؤلاء السبعة من أشهر المغنين :

ابن سريج : عبدالله بن سريج ، وكنيته أبو يحيى أول من ضرب بالعود على الغناء المتقن بالحجاز بعد طويس . كان يقال : ما خلق الله تعالى بعد داود عليه السلام أحسن صوتاً من ابن سريج . كأنه خلق من كل قلب فهو يغنى لكل إنسان .

ومعبد : هوأبو عبادة معبد به وهب مولى بنى قطر من موالى معاوية ، غنى أول دولة بنى أمية ومات أيام الوليد بن يزيد الذى تولى فى داره تجهيزه ودفنه ومشى متجرداً فى قميص وراء بين يدى سريره إلى قبره . وفيه يقول الشاعر :

أجاد طريس والسريجى بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

والغريض : هو عبد الملك وكنيته أبو زيد وقيل أبو مروان وقد لقب بالقريض لطراوة وجهه . . سمعه الوليد بمكة وسربه ، وكانت وفاته أيام سليمان بن عبدالملك .

وابن عائشة : هو محمد بن عائشة ويكنى أبا جعفر ولم يعرف له أب ، أخذ عن معبد ومالك ولم يموتا حتى ساواهما وكان يفتن كل من سمعه حتى ضرب به المثل ، طرب الوليد لغنائه حتى كفر وألحد . كما أخبروا — فقال : : يا غلام ، اسقنا بالسماء الرابعة . . .

وابن محرز : هو أبوالخطاب بن محرز مولى بنى عبد الدار أخذ عن عزة الميلاء وابن مسجح ، وهو أحد الفحول الخمسة الذين ظهروا فى الحجاز .

وطويس : هو عيسى بن عبدالله مولى بنى مخزوم ، أول من غنى بالعربية فى المدينة من الموالى وألقى الخنث بها .

ودحمان : عبد الرحمن بن عمر مولى بنى ليث بن بكر . استقدمه الوليد فظل أثيراً عنده إلى نهايته . انتظر أخبارهم فى الأغانى ، وجمهرة المغنين ، وكتب تاريخ الأدب).

(٣) فى الأصل : وطلب .

يزيد بن الوليد :

وكان يزيد بن الوليد بن عبدالملك (١) ، فلم تطل أيامه فتعرف أخلاقه ومذهبه ، إلا أنه كان يقول بالاعتزال ويحاج فيه .

مروان بن محمد :

وكان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (٢) ، فكان فى أيامه (٣) كلها فى حروب ، إلاأنه أول خليفة أظهر العصبية ، وأوقعها من المنابر ، وكان كاتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعد صاحب الرسائل ، وكان فى أول أمره معلماً ، وهو أول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات فى فصول الكتب ، فاستعمل الناس ذلك بعده .

ذكر خلفاء بنى العباس

أبو العباس السفاح :

ولى أبو العباس أمير المؤمنين ، وهو عبدالله بن محمد بن على بن عبدالله ابن العباس بن عبد المطلب(٤) . وكان أول ما فعله فامتثله الناس ، أنه خطب على المنبر قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فناداه الناس : يا ابن عم رسول ، أحييت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان سريعاً إلى

---

(١) ملك يزيد بن الوليد مستهل رجب سنة ١٢٦ هـ وكانت ولايته خمسة أشهر ، وسمى الناقص ، لأنه نقص من أعطيات أهل الحجاز . (١٣٦ : تاريخ الدول الإسلامية . و ٢ : ٣٣٥ اليعقوبى) .

(٢) ملك فى صفر سنة ١٢٧ هـ وكان قد سبقه إبراهيم بن الوليد فلم يلبث غير أربعة أشهر ، ومروان هو آخر خلفاء بنى أمية ، وعنه انتقلت الدولة إلى بنى العباس . (١٣٨ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٣) فى الأصل : فى أيامها .

(٤) بويع بالخلافة سنة ١٣٢ هـ (١٥١ : تاريخ الدول الإسلامية) .

الأمر بسفك الدماء (١) : فسفك الأشعث بالمغرب ، وصالح بن على بمصر ، وسفك خازم(٢) بن خزيمة ، وسفك حميدبن قحطبة(٣) بالعراق ، وسفك عبدالله بن على بالشام ، وسفك داود بن على بالحجاز ، وسفك يحيى بن محمد أخوه بالموصل ، وكان مع ذلك سمحا ، وصولا ، جواداً بالمـــال .

أبو جعفر المنصور :

وكان أبو جعفر المنصور ، عبدالله بن محمد (٤) ، فكان أول هاشمى أوقع الفرقة بين ولد العباس بن عبدالمطلب وأبى طالب بن عبد المطلب ، حتى قيل : عباسى وطالبى . وقيل : كان ذلك أمر بنى(٥) هاشم كلهم . وكان أول خليفة اتخذ المنجمين ، وعمل بالنجوم ، وكان أول خليفة ترجم الكتب القديمة العجمية ، ونقلها إلى اللسان العربى ، وفى أيامه ترجم كتاب كليلة ودمنة وترجم كتاب السندهند (٦) ، وترجم كتب أرسطاطاليس ،

---

(١) من ذلك أنه كان فى مجلس الخلافة يوماً وعنده سليمان بن هشام فدخل سديف الشاعر فقـــال :

لا يغرنك ما ترى من رجـــال إن تحت الضـــلوع داء دويا
فضـــع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فـوق ظهـــرها أمويا

فلم يلبث سليمان أن قتل . وكان عنده سبعون من بنى أمية على طعام فقتلوا جميعاً لأبيات استفزه بها من يقول :

لا تقيـــلن عبد شمس عثـــارا واقطعـــن كل رقلـــة وغـــراس
ذلهـــا أظهـــر التـــودد منهـــا وبهـــا منكم كحـــز المـــواسى

(١٥١ : تاريخ الدول الإسلامية)

(٢) دعاه أبو جعفر المنصور مع ابراهيم بن عقيل لينطلقا فى عشرة من الرجال إلى ابن هبيرة فكانت نهايته ونهاية أهله وخدمه على يد خازم ومن معه .
(٣٥٥ : الإمامة والسياسة)

(٣) فى الأصل : كحطبة .

(٤) تولى الخلافة : أبو جعفر لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة ١٣٦ هـ .

(٥) فى الأصل : بنو .

(٦) السندهند : معناه دهر الدهور ، ينسب إلى برهم ، وهو من كتب الهند القديمة الفلك ، وقد اختصر منه الأرجبهر والمجسطى .

وكتاب المجسطى (١) لبطليموس ، وكتاب إقليدس ، وكتاب الأرثماطيقى (٢) وسائر الكتب العجمية فى النجوم ، والحساب ، والطب ، والفلسفة ، وغير ذلك ، ونظر فيها الناس . وفى أيامه أيضاً وضع محمد بن إسحاق بن يسار كتبه المغازى ، ولم تكن قبل ذلك مجموعة ولا معروفة . وكان أول خليفة بنى مدينة فنزلها ، ، وهى مدينة بغداد ، وأخذ له الطالع فى الوقت الذى ا خذ بنيانها [فيه] (٣) فقيل له : إنه لا يموت بها خليفة .

وكان أبو جعفر قد نظر فى العلم ، وروى الحديث ، وكثرت علوم الناس ورواياتهم فى أيامه . وكان أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه ، وقدمهم على العرب ، فامتثلت ذلك الخلفاء من ولده بعده .

المهـــدى :

وكان المهدى (٤) سمحا ، سخياً كريماً جواداً بالأموال ، وكان الناس فى عصره على مثل مذهبه ، واتسع الناس فى أيام المهدى فى معايشهم ، وكان إذا ركب حملت معه البدر ، فلا يسأله أحد إلا أعطاه بيده (٥) . فتشبه الناس

---

(١) المجسطى : كتاب لبطليموس ، فى علم النجوم والحركات الفلكية اختصره من السندهند . (١ : ١٣٣ — اليعقوبى) .

(٢) الأرثماطيق : كتاب فى علم العدد وأنواعه ، والخواص الحسابية ، ألفه نيقوماخس الحكيم الفيثاغورى ، أبو أرسطوطاليس اليونانى (١ : ١٢٣ : اليعقوبى) .

(٣) مزيد .

(٤) بويع المهدى بمكة سنة ١٥٨ هـ « وكان المهدى شهماً ، فطنا ، كريماً ، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة ، لا تأخذه فى إهلاكهم لومة لائم ، وكانت أيامه شبيهة بأيام أبيه فى الفتوح والحوادث والخوارج ، وكان يجلس فى كل وقت لرد المظالم » (١٧٩ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٥) انقطع المهدى عن عسكره مع أحد خواصه فى الصيد ، فجاع فأوى إلى نبطى فأطعمهما مما عنده ، فسأل المهدى صاحبه أن يقول فى ذلك شعرا ، فقال :

إن من يطعم الربيثاء بالزيت وخبز الشعير والكـــرات
لجـــدير بصفعـة أو بثنتين لســـوء الصنيـع أو بثـــلاث

فقال المهدى لبئس ما قلت : إنما كان ينبغى أن تقول :

لجـــدير ببـــدرة أو بثنتين لحسن الصنيـع أو بثـــلاث

فلما وافاهم العسكر والخزائن والخدام أمر للنبطى بثلاث بدر وانصرف .

(١٧٩ : تاريخ الدول الإسلامية)

به ، وكان قصده قتل الزنادقة ، وذلك أنهم كانوا قد كثروا ، ومما كان ابن المقفع ترجمة من كتب مانى الثنوية (١) ، وكتب أيضاً فى الثنوية وغيرهما ، وما وضعه ابن أبى العوجاء ، وحماد عجرد ، ويحيى بن زياد ، ومطيع بن إياس (٢) ، وملأوا به الأرض من كتب الملحدين ، وكثرب الزنادقة ، وفشت كتبهم فى الناس . وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد . وبنى المسجد الحرام على ما هو عليه إلى هذه الغاية . وبنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الزلازل هدمته .

موسى بن المهدى :

ثم كان موسى بن المهدى (٣) ، فكان جباراً ، وكان أول خليفة مشت الرجال بين يديه بالسيوف المسللة والعمد ، والقسى (٤) الموترة ، فتشبه عماله به ، وذهبوا مذهبه .

---

(١) مانى بين فتق أوفاتك ظهر زمان سابور بن أردشير ، كان مجوسياً فأحدث دينا بين المجوسية والنصرانية هو الثنوية : نسبة إلى اثنين أزليين يقودان العالم متساويين فى القدم ، هما النور والظلمة خالق خير وخالق شر . وقد ترك مانى كتباً كثيرة فى بيان مذهبه (٢ : ٤٩ : الملل والنحل) . و (١ : ١٥٩ : اليعقوبى) .

(٢) اتهم هؤلاء الأربعة بالزندقة والفساد ، غير أن من المترجمين من لا يذكر ابن أبى العوراء فى الزنادقة .

وهو فليح بن أبى العوراء مولى بنى مخزوم من أهل مكة ، أول المغنين الذين رفع المهدى بينه وبينهم الستار فغناه مواجهة . كان من أهل العربدة والشراب .

أما حماد عجرد بن عمر بن يونس فهو من مخضرمى الدولتين الأموية والعباسية . شاعر متهم بالزندقة وهو ممن نادموا الوليد بن يزيد ، وكان بينه وبين بشار أهاج مقذعة .

ويحيى بن زياد بن عبيد الله الحارثى شاعر ماجن يرمى بالزندقة ، من أهل الكوفة توفى أيام المهدى العباسى .

ومطيع إبن إياس الكنانى شاعر ماجن متهم بالزندقة كان صديقاً لحماد عجرد توفى أيام المهدى كذلك .

(٣) هو موسى الهادى ، بويع سنة ١٦٩ هـ وكان « متيقظاً ، غيوراً ، كريماً ، شهماً ، أيدا ، شديد البطش ، جرىء القلب ، مجتمع الحس ، ذا إقدام وعزم وحزم » (١٨٩ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٤) القسى : جمع قوس : من آلات القتال . والموترة : المجهزة بشد أوتارها . استعداداً لإستعمالها .

هارون الرشيد :

ثم كان هرون الرشيد بن المهدى (١) فكان متابعاً للحج والغزو ، وبناء المصانع والقصور فى طريق مكة والمدينة ، ومكة والمدينة ، ومنى وعرفات وبنى ثمانية(٢) ثغور : مثل طرسوس وغيرها، وبنى دوراً للمرابطين . فتشبه أهله وعماله وأصحابه وكتابه به ، فلم يبق أحد إلا بنى بمكة داراً ، وبالمدينة دارا ، وبطرسوس داراً ، تشبهاً به ، وعملا بمثل عمله ، وكان أكثرهم لذلك فعلا ، وأحسنهم أثراً ، زوجته أم جعفر بنت جعفر بن المنصور ، (٣) ثم البرامكة وزراؤه، وغيرهم من مواليه وقواده وكتابه. وكان الرشيد مع ذلك أول خليفة ضرب بالصوالجة ، والطباطب ، ورمى بالنشاب(٤) فى البرجاس ، وقدم أهل الحذق بذلك ، وأول خليفة لعب بالشطرنج والنرد ، وقدم اللعاب ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأول خليفة اتخذ القيان (٥) من بنى هاشم ،

---

(١) بويع هارون الرشيد بالخلافة سنة ١٧٠ هـ .

(٢) فى الأصل : ثمان .

(٣) هى زبيدة أم محمد الأمين ، هاشمية أصيلة ، حتى قيل : « لم يكن فى الخلفاء هاشمى الأبوين غير على بن أبى طالب ومحمد » الأمين بن الرشيد (٢ : ٤٣٣ : اليعقوبى) .

وكانت من شهيرات النساء فصاحة ، حتى قال المأمون ، وقد عزت نفسها به عن ابنها بعد مصرعه بأوجز عبارة وأوقع معنى : « ما تلد النساء مثل هذه ! فاذا أبقت فى هذا الكلام لبلغاء الرجال ؟ » (٢١٩ : خلاصة الذهب المسبوك) .

أعرس بها الرشيد سنة ١٦٥ هـ فى خلافة المهدى ببغداد » (١٠ : ١٢١ تاريخ الأمم والملوك)

(٤) الصوالجة : جمع صولجان وهو المحجن : عود معوج الطرف يجذب به الشىء . والطباطب جمع طبطابة : خشبة عريضة تلعب بها الكرة . والنشاب : النبل ، مفرده نشابة بالتاء .

(٥) أخذ الرشيد بحظ من الدنيا لم ينسه عمل الآخرة ، وتاريخه حافل بالبر والصلاح وتكريم العلماء والواعظين ، والبكاء الناشىء عن سرعة التأثر كلما سمع أو رأى ما يذكر بالموت والدار الآخرة . قال الأصمعى : صنع الرشيد طعاماً ، وزخرف مجالسه ، وأحضر أبا العتاهية ، وقال : صف لنا ما نحن فيه من نعيم الدنيا ، فقال :

عش ما بدالك سالماً فى ظل شاهقة القصور

فقال الرشيد: أحسنت ! ثم ماذا ؟ فقال :

يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح أو البكور

فقال : حسن ! ثم ماذا ؟ فقال :

فإذا النفوس تقعقعت فى ظل حشرجة الصدور

فهناك تعلم موقنا : ما كنت إلا فى غرور =

فتشبه الناس جميعاً به ، وسلكوا سبيله ، وكان وزراؤه من البرامكة ، فكان يحيى بن خالد يحب الحكمة والكلام والنظر ، ففى أيامه كثر المتكلمون ، وجادلوا ، وناظروا ، ووضعوا الكتب ، منهم : هشام بن الحكم ، وضرار ابن عمرو ، ومعمر بن عمر ، وهو أيضاً نظر فى كتب الكيمياء ، فكانت البرامكة سمحاء كرماء ، أجواداً معطين مفضلين ، فتشبه عالمهم والناس جميعاً بهم ، حتى إن أيام الرشيد كانت تسمى لكثرة من كان بها من المفضلين أيام العرس .

وأفعال البرامكة مشهورة معروفة ، ولم يكن فى ناحية الرشيد إلا مفضل إما حقيقة وإما على التشبيه .

وكان الرشيد أول خليفة كتب فى صدور الكتب : « وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » فامتثلت الخلفاء ذلك بعده . وأول خليفة يلبس القلنسوة الطويلة الرصافية ، وأول خليفة كتب على الأعلام السود بالبياض « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

أم جعفـــر :

وأما أم جعفر بنت جعفر بن المنصور ، فإنها كانت تريد أن تتقـــدم الرشيد فى كل شىء من جد وهزل ، فأما الجد فالآثار الجميلة التى (٢) ليس فى الإسلام مثلها : فإنها حفرت عين المشاش ، وساقتها اثنى عشر ميلا إلى مكة ، وأنفقت عليها ألف ألف وسبعمائة ألف دينار ، ثم اتخذت المصانع ، والسقايات ، والمتوضآت حول المسجد الحرام ، وبنت دور السبيل ، ومصانع بمنى وعرفات ، وسقايات ، وحفرت آباراً فى منى على طريق مكة ، ووقفت على ذلك ضياعاً غلتها ثلاثون ألف دينار فى السنة ، وبنت فى الثغور دور السبيل ، وعملت البيمارستانات ، وحبست ضياعاً على الثغور ، وعلى الفقراء والمساكين ، غلتها مائة ألف دينار .

= فبكى الرشيد ، فقال الفضل بن يحيى : بعث إليك أمير المؤمنين لتسره فحزنته ، فقال الرشيد : دعه فإنه رآنا فى عمى فكره أن يزيدنا منه (١٩٣ : تاريخ الدول الإسلامية وأحاديث الوعاظ معه كثيرة رائقـــة .

(١) فى الأصل : الحسن .

(٢) فى الأصل : (الذى) .

وأما ما يتلين به الملوك وينعمون به ، فهى أول من عمل فى الإسلام الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر ، واتخذت رفيع الوشى ، حتى بلغ ثوب وشى عمل لها خمسين ألف دينار ، وأول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجوارى* : يركبون الدواب ويختلفون فى حوائجها برسائلها وكتبها . وأول من عمل القباب من الفضة والآبنوس والصندل ، ورأسها وكلاليبها من الذهب والفضة ، ملبسة الوشى والسمور (١) والديباج ، والخز والملحم والدبيقى ، وأول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجوهر وشمع العنبر ، وتشبه النساس بأم جعفر فى جميع أفعالها .

محمد الأمين :

وكان محمد الأمين بن الرشيد (٢) ، وأمه أم جعفر ، فقدم الخدم وآثرهم ، ورفع منازلهم ، فلما رأت أم جعفر [استضعافه](٣) بالخدم ، اتخذت الجوارى المعدودات الحسان الوجوه ، فطرت (٤) رءوسهن ، وجعلت لهن الطرر والأصداغ وشعور الأقفاء ، وألبستهن الأقبية والمناطق (٥) . وكانت

---

(١) السمور : كتنور فراء ثمينة تؤخذ من دابة بهذا الاسم .

(٢) بويع له سنة ١٩٣ هـ للنصف من جمادى الآخرة (١٠ : ١٢٤ – تاريخ الأمم والملوك) حين عهد إليه الرشيد قال : سايم الخاسر وكان الأمين ابن خمس سنين :

قد وفق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخلافة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده ... شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان فى مهد الهدى ... لمحمد بن زبيدة ابنة جعفر

(١٠ : ٥٣ – تاريخ الأمم والملوك)

اشتغل الأمين عن الخلافة وتبعاتها الجسام « . . . طلب الخصيان وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه . . . ووجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه وأجرى عليهم الأرزاق . . . واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت المال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه . . . (١٠ : ٢١٥ – تاريخ الأمم والملوك)

(٣) لفظ غامض .

(٤) الطرة بالضم . . . أن تقطع للجارية فى مقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج (القاموس المحيط) .

(٥) المناطق : جمع منطقة أو منطق على وزن مكنسة أو منبر ما يشد به الوسط . والأقبية : جمع قباء بفتح القاف ثوب خارجى ذو شكل معين كالجبة .

* وردت هذه الكلمة فى المخطوطة مرسومة هكذا : الجوار .

أون من فعل ذلك ، وبعثت بهن إليه ، وأبررتهن للناس ، فاتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطرورات (١) ، وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات (٢) ، وقصرت أيام محمد حتى قتل .

المـأمون :

وكان المأمون أمير المؤمنين ابن الرشيد (٣) ، فكان فى أول خلافته يغلبه الفضل (٤) ، يستعمل النجوم والنظر فيها ، ويذهب مذاهب ملوك الفرس ، ويشتهى قراءة الكتب القديمة ، فلما قدم العراق اطرح ذلك ، وأظهر القول بالعدل والتوحيد ، وجالس المتكلمين ، والفقهاء ، والأدباء وأقدمهم من البلدان ، وأجرى لهم الأرزاق ، فكثر المتكلمون فى أيامه ووضع كل امرىء كتاباً ينصر قوله ويرد على من خالفه ، وكان أكرم الناس عفواً ، وأحسنهم (٥) مقدرة ، وأجودهم بالمال وأبذلهم للعطايا .

فأما عفوه: فإنه عفا عن إبراهيم [بن] المهدى وقد خلعه إبراهيم بعد أن كان عامله على البصرة ، ردعا لنفسه ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وحارب أصحابه . وعفا عن الفضل بن الربيع ، وهو الذى كان حمل محمداً (٦) على خلعه من ولاية العهد ، ووجه الجيوش لمحاربته ، ثم أعطاه الأمان فنكث ودعا الناس إلى البيعة لإبراهيم بن المهدى . وعفا عن سليمان بن (أبى) جعفر ابن سليمان وقد خلعه وقال فيه أقبح القول . وعفا عن نعيم بن خازم وقد أقام يحاربه عدة سنين . وعفا عن عيسى بن محمد بن أبى خالد — وقد نكث بيعته مرة بعد أخرى وحارب أصحابه — حتى قتل صاحب شرطته ، وعفا عن

---

(١) فى الأصل : المطومات .

(٢) تسبة إلى الغلام للمشابهة فى المظهر .

(٣) بويع له ، البيعة العامة ببغداد سنة ١٩٨ هـ .

(٤) الفضل بن الربيع من أعاظم رجال الأمين ثم المأمون بعد عفوه عنه .

(٥) مكان أحسنهم غير واضح فى الأصل .

(٦) هو محمد الأمين أخو المأمون .

سهل بن سلامة المطوعى ، وكان يلبس الصوف ، ويعلق المصحف فى عنقه ، ويأمر الناس بخلع المأمون ، وألا يعطيه أحد طاعة . وعفا عن مهدى بن علوان السارى ، وقد تسمى بأمير المؤمنين ، وحارب أصحابه ، فظفر به بغير عهة ولا أمان . وعفا عن دعبل الشاعر وقد هجاه بأقبح هجاء (١) . وعفا عن عبيد (الله) بن السرى بن الحكم المتغلب على مصر ، وقد أقام(٢) بحاربه عدة سنين.وعفا عن محمد بن جعفر بن محمد العلوى وقد خرج بمكة وتسمى بأمير المؤمنين .وعفا عن زيدبن موسى بن جعفر ،وقد خرج بالبصرة وخلع المأمون . وعفا عن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد العلوى ، وقد خرج باليمن وحارب الجلودى (٣) . وعفا عن جميع المتغلبين : مثل رباح بن أبى رمثة المتغلب بديار ربيعة ، والعباس بن زفر الهلالى ، المتغلب بقورس من جند قنسرين ، ونصر بن شبث العقيلى ، المتغلب بديار مصر ،مع محاربته أياماً ، وعن عثمان بن ثمامة العبسى الخارج عليه بالحجاز ، وعن الحوازى ابن حنطان(٤) التنوخى ،الخارج بحاضرتنوخ . وعن غير هؤلاء ممن لو ذكرناه لطال الكتاب : وقال : حبب إلى العفو حتى ما أرانى أوجر عليه ! (٥) .

وأما الجود والسماحة فإنه أمر فى يوم واحد لثلاثة نفر بألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، لكل واحد خمسمائة ألف دينار . وقل المال فى بيت المال ،

---

(١) من هجاء دعبل للمأمون قوله :

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد !
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

فلما بلغه لم يزد على أن قال : قاتله الله ما أشد بهتانه ! متى كنت خاملا وفى حجر الخلافة نشأت وبدرها أرضعت ؟ .

(٢٠ : تاريخ الدول الإسلامية)

(٢) مكررة فى الأصل .

(٣) هو عيسى بن يزيد الجلودى من قواد الجيش فى دولة المأمون .

(٤) فى الأصل حطان .

(٥) تمامه فيما نقلوا : « ولو علم الناس حبى للعفو لتقربوا إلى بالجرائم » (١٩٢ : خلاصة الذهب المسبوك) .

فجمع أصحابه وقال : إنه قد قل وأضر ذلك بنا وبأوليائنا ، فاستقرضوا لنا من التجار مقدار عشرة آلاف درهم إلى أن تأتى الأموال فنردها . فقام غسان بن عباد فذكر ما أنعم به عليه ، وعرض ثلاثين ألف ألف درهم ، وقال : هى حاصلة عندى . وقام حميد بن عبد الحميد الطوسى وقال مثل ذلك . وقام من حضر المجلس من أصحابه فعرض ما عنده ، حتى بلغ ما عرضوا عليه مائة ألف ألف (١) وستة وخمسين ألف ألف درهم ، فلم يقبل من أحد منهم شيئاً وجزاهم (٢) الخير .

وتأخرت الأموال ، وبشر بموافاة مال خراج فارس ، فركب ينظر إليه ، ثم فرقه كله ، فلم يبق إلا مقدار عطاء الجند ، فأمر المعلى بن أيوب بقبضه .

وكان أصحابه ، ووزراؤه ، وكتابه ، وقواده ، يتقيلون (٣) فعله ، ويسلكون سبيله ، ويذهبون مذهبه . فمنهم : الحسن بن سهل ، وكان أكرم الناس وأجودهم وأكثرهم إفضالا ، وأحملهم لنائبة فادحة ، وأصبرهم على إعطاء كل من سأله (٤) وكان حميد بن عبد الحميد الطوسى جواداً سمحاً مفضلا ، ووقف ضياعاً غلتها فى السنة مائة ألف دينار على أهل البيوتات وذوى الأقدار ، وكان لا يرد أحداً .

---

(١) فى الأصل (وست) .

(٢) دعا لهم أن يجزيهم الله الخير .

(٣) فى القاموس : تقيل أباه : أشبهه ، والمراد : يتشبهون به فى فعله .

(٤) وقف بباب الحسن رجل يلتمس صلته ، فاشتغل عنه قليلا بمهم له ، فكتب الرجل إليه :

المال والعقل مما يستعان به ... على المقام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أنى منهما عطل ... إذا تأملتنى يا ابن الدهاقين
أما تذلك أثوابى على عدمى ... والوجه أنى رئيس فى المجانين
والله يعلم ما للملك من رجل ... سواك يصلح للدنيا وللدين

فأمر له بعشرة آلاف درهم ، ووقع فى رقعته :

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا ... قلا ، ولو أنظر تنا لم نقلل
فخذ القليل وكن كأنك لم تسل ... ونكون نحن كأننا لم نسأل

وكان غسان بن عباد سمحا : فرق فى يوم واحد ثلاثة عشر ألف ألف درهم ، وكان إذا سأله أحد حاجة يكلم فيها المأمون أعطاه من ماله وكلم المأمون .

وكان عبدالله بن طاهر عظيم المروءة ، حسن الاحتمال ، حسن الإجمال : أمر فى يوم واحد لثلاثة من أصحابه بثلاثمائة ألف دينار ، لكل واحد بمائة ألف دينار ، ولثلاثة نفر بمائة وخمسين ألفا ، لكل واحد بخمسين ألف دينار .

وكان على بن هشام أسمح الناس ، وأحسنهم مروءة ، وكان مطبخه يحمل إذا سافر على سبعمائة بعير . وكان أحمد بن يوسف كاتبه عظيم المروءة ، وكان الناس عامة على أخلاق محمودة .

وشغب الجند ببغداد فكثر ضجيجهم لتأخر أرزاقهم ، فخرج إليهم فرج الرحجى فضمن لهم أرزاق سنة ، ثم دفعها إليهم من ماله .

وكان [المأمون] (١) أول خليفة كتب على علوانات كتبه « بسم الله الرحمن الرحيم » وأول خليفة صير ديوان العرض للجند ، وأول خليفة أرخ الكتب باسم كاتبه وإنما كانت تؤرخ باسم المحرر فبقيت هذه الرسوم(٢) .

المعتصم :

ثم كان المعتصم ، وهو محمد بن هرون الرشيد (٣) ، فسلك فى المقالة فى

---

(١) مزيد لطول الفصل .

(٢) وفى المناسبة يقول هلال بن المحسن : « وشاهدت كتاباً بخط المأمون — صلوات الله عليه — وفى آخره : وكتب أمير المؤمنين بيده . ثم اعتدت هذه الحال منزلة فيها نباهة وجلالة فأضافها الوزراء إلى نفوسهم وجعلوا ما يصدر من الكتب تونوها أوتولاها كتابهم عنهم بأسمائهم . . . » .

ص ١٢٤ رسوم دار الخلافة لأبى الحسن هلال ابن المحسن الصابىء — بتحقيق ميخائيل عواد بغداد ١٩٦٤ .

(٣) بويع للمعتصم لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ وكان المعتصم ظاهر الحزم والمناقب وإعزاز الدين ، وكان له فى خلافته فتوح لم تكن لأحد من الخلفاء ، وهى ثمانية بلدان منها عمورية ، وقتل ثمانية ملوك لكل منهم معه خبر طريف يطول بيانه . قيل : لم يكن فى بنى العباس من قبله أشجع منه ولا أتم تيقظاً فى الحرب ولا أشد قوة ، وكان يلوى العمود الحديد حتى يصير طوقاً ، ويشد على الدينار بإصبعه فيمحو كتابته . (٢٢١ : خلاصة الذهب المسبوك) .

الدين مذهب المأمون ، وكان الذى غلب عليه الفروسية والتشبه بالعجم ، فلبس الثياب الضيقة الأكمام ، فضيق الناس أكمام ثيابهم . ولبس الخفاف الكبار ، والشاش المربعة . وكان أول من لبس شاشية مربعة ، فلبسها الناس تشبهاً به ، ونسبت إليه . فقيل (١) : الشاشى المعتصمية . .

وكان أول خليفة ركب السروج المكشوفة ، واتخذ الآلات العجمية ، فتشبه الناس به ، ولم يكن فى عصره من وزرائه ، وقواده ، وكتابه ، من يوصف بإعطاء ولا جود ولا احتمال إلا الحسن بن سهل على تقاصر أحواله . وابن أبى دؤاد ، فإنه كان ذا فضل ومعروف كثير . وكان ابن أبى دؤاد غالباً على أمره ، مقدماً عنده .

الواثق :

ثم كان هرون الواثق بن المعتصم (٢) ، فكان مذهبه فى الدين والقول بالعدل على مذهب أبيه المعتصم وعمه المأمون ، وأظهر ذلك . وامتحن عليه ، وعاقب من خالفه ، وحبس من أبدى عناداً فيه ، وكتب إلى القضاة فى الآفاق أن يمتحنوا العدول فلا يقبلوا شهادة من لم يقل بقوله . فغلب هذا على الناس ، وتقربوا به إلى ابن أبى دؤاد ، وإلى القضاة ، ولم يكن فى عصره من يفزع إليه إلا ابن أبى دؤاد .

وكان الواثق كثير الأكل واسع الطعام ، كثير الصدقات ، متفقداً لأهل بيته فى كل بلد .

---

(١) فى الأصل : (وقيل) .

(٢) ولى الواثق لإحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ .
(٢ : ٤٧٩ — اليعقوبى)

كان يتشبه بعمه المأمون فى أخلاقه وكرمه وحلمه ، لأنه هو الذى رباه ، فتقيل أفعاله وحج بالناس وأحسن إلى العلويين ، وكان حسن الفكر فى صلاح الرعية ، حافظاً حق من خدمه يتجاوز عن هفواته . (٢٢٢ : خلاصة الذهب المسبوك)

جعفر المتوكل :

ثم كان جعفر المتوكل بن المعتصم (١) ، فأبطل ما كان يقول به الواثق ، وأظهر القول بالسنة والجماعة ، وأطلق من كان فى المحابس ممن حبس بسبب عدم القول بخلق القرآن ، ونهى عن الجدل ، وأمر كل من أطلقه من المحدثين أن يتحدثوا ، فترك الناس تلك (٢) المقالة ، وأنكرها من كان يقول بها ، وارتفع الجدل والمناظرة ، وكان مما أحدثه بناء الحبوس والأروقة التى عليها الأبواب ، فبنى الناس جميعاً بسر من رأى هذا البناء . وآثر لبس الثياب الملحم على جميع الثياب ، فكان لباسه ولباس كل من فى داره من كبير وصغير ، وارتفع ثمن الملحم فى أيامه لجودتها . وكانت أيامه أياماً حسنة ناضرة كثيرة الخير ، على أنه أول خليفة أظهر العبث ، وأطلق فى مجلسه الهزل والمضاحيك ، وأشياء تركنا ذكرها ذاعت فى الناس واستعملوها وجروا فيها.

ولم يكن المتوكل ممن يوصف بإفضال ولا جود ، وكان الفتح بن خاقان أغلب الناس عليه ، وأشدهم تقدماً عنده ، ولم يكن ممن يرجى فضله ولا يخاف مكروهه . وكان عبدالله بن يحيى بن خاقان وزيره ، وكان طالباً للسلامة ، له مروءة فى نفسه ، ولا إفضال له على أحد ، إلا أن الناس يأمنون منه المكروه ، وكان يعتد عليه بقول لاحقيقة له ، فكان أحمدبن إسرائيل(٣) يقول : تعلمنا منه الكذب .

---

(١) ولى المتوكل الخلافة لست بقين من ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ .نهى عن الكلام فى القرآن وأطلق من كان فى السجون من أهل البلدان ومن أخذ فى خلافة الواثق جميعاً ، فخلاهم وكساهم ، وكتب إلى الآفاق ينهاهم عن المناظرة والجدل فأمسك الناس . (٢ : ٢٨٤ – اليعقوبى) .

(٢) مقالة العدل والتوحيد .

(٣) أبو جعفر أحمد بن إسرائيل الأنبارى أحد الكتاب الحذاق الأذكياء ، كان يحفظ وجوه المال دخلا وخرجا ، وزر للمعتز وحبس ثم ، أفرج عنه ثم ضرب حتى مات .

محمد المنتصر :

وكان محمد المنتصر بن المتوكل (١) ، فلم تطل أيامه فتعرف مذاهبه ، غير أنه كان بخيلا ، وكان أحمد بن الخصيب (٢) كاتبه ووزيره ، فكان قليل الخير ، كثير الشر ، شديد الجهل .

المستعين :

وكان المستعين : وهو أحمد بن محمد بن المعتصم (٣) ، فكان أول خليفة وسع أكمام الثياب ، فجعلها ثلاثة أشبار ونحوها ، وصغر القلانس وقصرها ، ولا يعرف له مذهب اتبعه الناس عليه ، ولا أخلاق يشبه الناس به فيها ، وشغل عن كل شيء بما تهيأ عليه من المخالفة والخلع .

المعتز :

وكان المعتز : وهو أبو عبدالله (٤) بن المتوكل ، أول خليفة ركب بحلية الذهب ، وكانت الخلفاء تركب بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف والسروج واللجم ، فلما ركب بحلية الذهب اتبعه الناس على ذلك ، ولم تعرف له أخلاق تحمد ولا تذم .

---

(١) ولى المنتصر منذ قتل أبوه في أربع من شوال سنة ٢٤٧ هـ وكان شيعياً ، ومن شعره :

متى ترفع الأيام من قد وضعنه ... وينقاد لى دهر على جموح
أعلل نفسى بالرجاء وإننى ... لأغدو على ما ساءنى وأروح

(٢) قالوا : كان مقصراً فى صناعته ، مطعوناً عليه فى عقله ، ذا حدة وطيش ، ألح عليه طالب حاجة وهو راكب ، فأخرج رجله من الركاب فركله فى صدره فقال بعض الشعراء :

قل للخليفة : يا ابن عم محمد ... أشكل وزيرك إنه ركال
قد نال من أعراضنا بلسانه ... ولرجله عند الصدور مجال

(٢٣٩ : تاريخ الدول الإسلامية)

(٣) ولى الخلافة لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ .

(٤) بويع لسبع خلون من المحرم سنة ٢٥٢ هـ (٢ : ٥٠٠ — اليعقوبى) لم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس ، إلا أن الأتراك استولوا على كل شيء حتى أصابه مصرعه بقسوتهم سنة ٢٥٥ هـ (٢٤٣ : تاريخ الدول الإسلامية) .

المهتـــدى :

ثم ولى المهتدى (١) ، وهو محمد بن الواثق ، فذهب إلى القضاء فى الدين ، وجلس للمظالم ، ووقع بخطه ، وقرب الفقهاء . وكان يقول : يا بنى هاشم ، دعونى حتى أسلك مسلك عمر بن عبد العزيز ، فأكون فيكم مثله فى بنى أمية ، وتقلل فى اللباس والفراش ، وتوهم الناس عليه أنه يذهب مذهب أبيه فى القول بخلق القرآن .

المعتمـــد :

والمعتمد ، وهو أحمد(٢) بن المتوكل ، فإنه لم تطل أيامه حتى غلب على أمره فآثر اللذة ، واعتكف على الملاهى ، وغلب أخوه أبو أحمد على الأمور حتى حظر عليه وحبسه ، وكان أول خليفة قهر وحجر عليه وحظر .

المعتضـد :

ثم كان المعتضد ، وهو أحمد بن أبى أحمد بن المتوكل فكان رجلا شهماً حازماً . آخر ذلك (٣) .

---

(١) كانت البيعة له لثلاث بقين من رجب سنة ٢٥٥ هـ . جاهد للتخلص من سلطان الأتراك ، ولكنهم تغلبوا عليه حتى أصيب بجراح أعقبها موته « لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢٥٦ هـ) ٢ : ٥٠٦ — اليعقوبى) .

(٢) بويع المعتمد سنة ٢٥٦ هـ وكان مستضعفاً ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، إذ كانا كالشريكين فى الخلافة : للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمير المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى (٢٥٠ : تاريخ الدول الإسلامية) .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن الأمين أبى أحمد طلحة الموفق بن جعفر بن المتوكل ، بويع يوم الإثنين ثانى عشر رجب سنة ٢٧٩ هـ وكان ذا رأى وحزم وشجاعة وعدل فى الرعية وإلزام خاصته بالتزام الطريقة المثلى خوفاً من العقاب وشاع ذلك فى الأجناد حتى سلكوا أحسن مسلك وحج وغزا وفضائله كثيرة وآثاره عظيمة . سمى السفاح الثانى لأنه جدد ملك بنى العباس « توفى المعتضد ليلة الإثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين فى قصره المعروف بالحسنى بمدينة السلام » (٢٣٥ : خلاصة الذهب المسبوك) .

هذا ما انتهت به المخطوطة ، ويكون المعتضد قد عاش بعد وفاة المؤلف ما يقارب خمس سنوات ، إذا صح أن وفاة اليعقوبى كانت سنة ٢٨٤ هـ ، كما أن لو صح ذلك يكون قد عاصر المعتضد مثل هذه المدة ، والله أعلم بالصواب ، وله الحمد فى الأولى والآخرة وهو العزيز الحكيم .

فهرس الأعلام

ابراهيم بن المهدى
ابن أبى دؤاد
ابن أبى العرجاء
ابن ديصان
ابن سريج
ابن عائشة
ابن محرز
ابن المقفع
أبو بكر الصديق
أبو جعفر المنصور
أبو سالم الأعرج
أبو سفيان بن حرب
أبو عبيدة بن الجراح
أبو قحافة
أحمد بن الخطيب
أحمد بن يوسف
الأخطل
أرسطوطاليس
اسماعيل بن جعفر
الأشعث
الأشعث بن قيس
أقليدس
أم جعفر زوجة الرشيد
أم فروة
الأمين
البرامكة
بطليموس
بنو أمية
جرير
حازم بن خزيمة
حباية
الحجاج
الحسن بن سهل
حماد عجرد
حميد بن عبد الحميد
حميد بن قحطبة
الحوارى بن حطان
حويطب بن عبد العزى
داود بن على
دحمان
دعبل الشاعر
ذو الكلاع
رسول الله
الرشيد
الزبير بن العوام

زياد بن أبيه
زيد بن موسى
سعد بن أبي وقاص
سعيد بن المسيب
السفاح
سلمان الفارسي
سليمان بن عبد الملك
سهل بن سلامة
صالح بن علي
ضرار بن عمرو
طلحة بن عبيد الله
طويس المغني
العباس بن زفر
عبد الحميد بن يحيى
عبد الرحمن بن عوف
عبد الله بن طاهر
عبدالله بن عامر
عبدالله بن عبد الملك
عبدالله بن عتبة
عبدالله بن علي
عبدالله بن عمر بن الخطاب
عبدالله بن السرى
عبيدالله بن يحيى بن خاقان
عبدالملك بن مروان
عثمان بن حيان
عثمان بن عفان
عقبة بن عامر

علي بن أبي طالب
علي بن هشام
عمر بن الخطاب
عمر بن عبد العزيز
عمرو بن العاص
عمير بن سعد
عيسى بن محمد
الغريض
غسان بن عباد
الفتح بن خاقان
الفرزدق
الفضل بن الربيع
قرة بن شريك
معاوية بن أبي سفيان
معبد المغني
المعتز
المعتصم
المعتضد
المعتمد
المقداد
المعلى بن أيوب
معمر بن عمر
المنتصر
المهتدى
المهدى

مهدى بن علوان
المهلب
موسى بن المهدى
موسى بن نصير
نصرى بن شبيب
نعيم بن حازم
المأمون

مانى
محمد بن اسحاق
محمد بن جعفر العلوى
محمد بن مروان
محمد بن يوسف الثقفى
المتوكل
مروان بن محمد
المستعين

مسلمة بن خالد
مطيع بن إياس
هشام بن اسماعيل
هشام بن الحكم
هشام بن عبد الملك
الواثق
الوليد بن عبد الملك
الوليد بن يزيد

يحيى بن خالد
يحيى بن زياد
يحيى بن محمد
يزيد بن عبد الملك
يزيد بن معاوية
يزيد بن الوليد
يعلى بن منبه

فهرس الأماكن والبلدان

الإسكندرية
إفريقية
بئر أريس
البصرة
بغداد
الجرف
الجزيرة
حاضر تنوخ
الحجاز
حمص
خراسان
خيبر
دار الزبير بالإسكندرية
دار الزبير بالبصرة
دار الزبير بالكوفة
دار الزبير بمصر
دار سعد بالعقيق
دار عثمان بالمدينة
دار عقبة بن عامر بمصر
دار ربيعة
ديار مضر
الرها
سر من رأى
سوق المدينة
الشام
الطائف
طرسوس
العراق
عرفات
العقيق
عين المشاش
فارس
قورس
الكوفة
المدائن
المدينة
المسجد الحرام
مسجد دمشق
مصر
المغرب
مكة
منى

الموصـــل

وادى القـــرى

الوهـــط

اليمـــن

ينبـــع